الدكتور محمد شامة

لا ...
لتطوير الخطاب الديني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

كتب للمؤلف

- الإسلام قوة الغد العالمية.
- الإسلام كما ينبغي أن نعرفه.
- الإسلام فى الفكر الأوربى.
- بين الإسـلام والمسيحية.
  لأبي عبيدة الخزرجى - تحقيق وتعليق.
- الخطر الشيوعى فى بلاد الإسلام.
- أثر البيئة فى ظهـور القـاديانية.
- الشبـاب مـرآة المجتمع.
- لا ... لتطوير الخطاب الديني.
- الحسد فى القرآن الكريم.

لا ...
لتطوير الخطاب الديني

الدكتور محمد شامة

لا...
لتطوير الخطاب الديني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

مكتبة وهبـة
للنشر والتوزيع
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
ت: ٣٩١٧٤٧٠
ف: ٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب
لا ... لتطوير الخطاب الديني

اسم المؤلف
أ.د. محمد شامة
رقم الإيداع بدار الكتب
٢٦٧٦ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولى
I.S.B.N. 977-17-2001-5
الطبعة الأولى
٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كشفت أحداث سبتمبر ٢٠٠١ عما يكنه الضمير الغربى للإسلام والمسلمين ؛ إذ أظهرت تصريحات السياسيين عما كانوا يخفونه وراء الكلمات الدبلوماسية من عداوة وتربص بالمسلمين ، فها هو ذا الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش يعلنها حربا صليبية عندما خانه التحفظ الدبلوماسى، ورئيس وزراء إيطاليا بيرلسكونى يستخف بالحضارة الإسلامية ، معربا عن موقف الغرب غير المعلن من الإسلام والمسلمين ، وشنت " مارجريت تاتشر " ـ فى مقال لها بصحيفة : " الجارديان " فى ١٢ فبراير ٢٠٠٢م ـ هجوما عنيفا على الإسلام دون مواربة ، وقارنته بالشيوعية ، ووصفت المسلمين بأنهم بلاشفة ، كما أعلنت وسائل الإعلام بجميع أنواعها حملة شعواء ضد كل ما هو إسلامى ، حتى وصل بها الأمر إلى دفع جهات رسمية غربية على مطالبة الدول الإسلامية بتغيير وتعديل المناهج الدينية فى المدارس والجامعات بما يتوافق مع التوجهات الغربية . وقد ذكر الأستاذ فهمى هويدى فى مقال له فى الأهرام بتاريخ ٢٠٠٢/٢/١٩ أن الغرب يطالب الدول الإسلامية بأمرين :

أولهما: مراجعة مناهج التعليم الدينى و" تنقيتها " مما يتصورون أنه يؤثر بالسلب على علاقة المسلمين بغيرهم، أو يحرضهم ضد إسرائيل، أو يستحثهم على الجهاد.

أما ثانيهما : فهو تأميم كل المدارس الدينية والمساجد التى رعاها المجتمع منذ قرون، بحيث يتم إخضاعها للإشراف الحكومى، وهى المطالب التى بدأ تنفيذها ـ للأسف الشديد ـ علنا فى اليمن وباكستان ، ودون إعلان فى دول أخرى. كما رفضتها دول أخرى، مثل : السعودية ومصر ، لكن الجميع ـ تقريبا ـ تجاوب مع هذه النغمة بشكل آخر ، ألا وهى ما أُطْلق عليه : " **تطوير الخطاب الدينى** " ، فرأينا ندوات تعقد هنا وهناك ، ومؤتمرات يدعى لها كبار المتخصصين لاستطلاع آرائهم حول بلورة الخطاب الدينى ، ليتماشى مع الموجة العالمية التى تقودها قوة عظمى ، لا تحمل ودا للإسلام، وليس لها هدف سوى إخضاع المسلمين لسيطرتـــها،كى تستغل مواردهم، وتتحكم فى وسائل تنشئة شبابـــهم ثقافيا وسلوكيا .

لم يكن الدافع لعقد هذه المؤتمرات والندوات تصحيح الخطاب الدينى للنـــهوض به، حتى يكون قادرا على معالجة الانحرافات فى المجتمعات الإسلامية ، أو ليكون الداعية مؤهلا لمخاطبة الآخرين بأسلوب مفهوم يزيل ما علق فى أذهانـــهم من تصورات مغلوطة عن الإسلام ، إنما كان الدافع هو تعديل أسلوب الدعوة على نحو يحد من تطرف بعض الشباب حتى لا يزعجوا السادة الغربيين، ويمنع جنوح بعض المسلمين إلى الاعتداء على ممتلكات المستعمرين وقواتـــهم العسكرية الرابضة فى ديار المسلمين بـــما يضمن الأمن والاستقرار لهذه القوات الأجنبية فى بلاد المسلمين. فالأمر لا يعدو توجيه غير مباشر من الخارج لتغيير أسلوب الدعوة،

فتجاوب الفكر الإسلامى مع هذه النغمة الواردة، وبدأ يعزف على الوتر الذى أعده له الغرب دون وعى ولا إدراك ، وإن حملت بعض أوراق هذه المؤتـــمرات والندوات نقاطا مهمة، كان يجب على المسلمين طرحها ومناقشتها قبل هـــذا التوجـــه الخارجى بزمن طويل .

ومما لا شك فيه أن بعض الأفكار التى طرحت فى هذه الندوات والمؤتمرات كان إيجابيا ، وكان من الضرورى أن تطرح للمناقشة قبل ذلك بزمن طويل للرقى بأساليب الدعوة إلى الله ، مثل : فقه الأولويات ، والعلاقة مع الآخر ، والترغيب والتيسير ، والعناية بمناهج إعداد الدعاة وغيرها من الأمور التى كان يجب على المهتمين بالدعوة مناقشتها لتصحيح الخطاب الدينى بدافع الحرص على نشر الإسلام، وليس تجاوبا مع اتجاه سياسى يبغى مصلحة ما، ولا امتثالا لتوجيه من قوى دولية لترويض المسلمين، وتمييع ثقافتـــهم الدينية، وإضعاف ما يربطهم بدينـــهم مـــن تعاليم وواجبات دينية .

ما زال صدى أحداث الحادى عشر من سبتمبر تدوى فى جميع أركان الكرة الأرضية ، وخاصة فى العالم الإسلامى ، ولم يقتصر هذا الدوى على ما يرتكبه جيش الولايات المتحدة الأمريكية - وحلفائها - من اجتياحه لأقطار إسلامية بدباباته وطائراته وقنابله، وما يحدثه كل يوم، صباح مساء، من ضحايا فى الممتلكات والأرواح، بل تجاوز صدى هذه الأحداث كل الحواجز التى أرستها القوانين الدولية ، وأقامتها كل القيم الإنسانية والتعاليم

الدينية؛ فطالب القطب الأوحد بتغيير مناهج التعليم فى البلاد الإسلامية، بحجة أنــها تُخَرِّج متطرفين وإرهابيين ، ولذا يجب تنقية هذه المناهج من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية التى تحث على الجهاد، وتربى فى النشء غريزة الدفاع عن الدين والوطن .

تجاوبت أصداء هذه الدعوة فى العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه ، ومن شماله إلى جنوبه ، بعضها مرحباً ، والآخر مستنكراً ، لكن نسبة كبيرة من العلماء والمفكرين دعت إلى بحث المسألة بحثاً علميًّا، فعقدت المؤتمرات والندوات، بحيث غطت أحداثها جميع مناطق العالم الإسلامى، من مراكش غرباً إلى إندونيسيا شرقاً ، ومن الأناضول شمالا إلى أطراف القارة الإفريقية جنوباً. ومن أبرز القضايا التى طُرِحَت فى هذه التجمعات قضية " **تطوير الخطاب الدينى** " ، أُلقِيَت فيها بحوث ، وسُطِّرَت حولها مقالات ، ونوقشت جوانبــها فى لقاءات إعلامية ، وكان الاتجاه الغالب عليها هو : " **ضرورة تطوير الخطاب الدينى** " . **فما مدى صحة هذا الاتجاه؟ وهل يحتاج الخطاب الدينى إلى تطوير؟**

وللإجابة عن هذين السؤالين نعرض هذا البحث على القارئ، لعل وعسى أن يكون فيه تحديد مسار خطابنا الدينى .

والله أسأل أن يوفق الجميع لما فيه صلاح الدين والدنيا . إنه سميع مجيب .

محمد عبدالغنى شامة

دعوى محاصرة الإرهاب

تعرض العالم العربى والإسلامى بعد الحادى عشر من سبتمبر لضربات موجعة ، أصابته فى القلب ، فشلت حركته ، وأفقدته توازنه ، فضاعت منه معالم الطريق للدفاع عن نفسه ، أو تخفيف مايوجه إليه من لطمات، وتصحيح ما يرمى به من اتـــهامات، ذلك أن الموجة عالية، والرياح شديدة، فضلا عن أنــــها صادفت مجتمعات وهنت عزيمتها، وخارت قواها من جراء ما فعل بـــها أبناؤها من ارتكاب حماقات لا لزوم لها، واعتناق مبادئ لا يعرفها الإسلام ، بل تنكرها النصوص المقدسة ، ويشجبـــها العلماء الراسخون فى العلم.

اتخذ الغرب تلك الخرافات سبباً ووسيلة للنيل من الإسلام والمسلمين ، فشن حرباً شعواء ضد العالم الإسلامى ، بدأت بأفغانستان ، ثم أردفتها بالعراق ، ولا ندرى على من يأتى الدور بعد ذلك . ولم يكتف بـــهذه الهجمة المسلحة ، بل صاحبتها دعوات وإملاءات للعالم الإسلامى ، بل أوامر ـ مدعومة بالتلويح بالدبابات والطائرات ـ بتنفيذ إصلاحات فى جميع المجالات الحياتية: سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ....إلخ . تطلب القوة العظمى الوحيدة فى العالم من حكومات العالم الإسلامى أن تطبق النظام الديموقراطى الغربى ، بما فيه من حرية الكلمة، وحقوق الإنسان، والنهوض بالمرأة، وخصخصة الاقتصاد، واعتماد وتقوية

حرية التجارة والصناعة وتوابعهما، حتى أنـــهم يحاولون حملنا على مباركة الحرية الجنسية ، بما فيها من نظام زواج المثليين .

ويرون أن تنفيذ هذه المطالب يساعد على محاصرة الإرهاب ومكافحته . نرى ذلك كله ونسمعه ونقرأه فى المنتج الثقافى الغربى؛ إذ لا تفتأ وسائل الإعلام من نشر المقالات والتحقيقات والمقابلات المرئية والمسموعة والمقروءة التى تصب فى هذا الإطار ....حتى أصبحت قضية الإصلاح والتغيير فى العالم الإسلامى تكاد تكون هى الموضوع الرئيس فى الساحة الثقافية والفكرية . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى المطالبة بتغيير هويتنا وكياننا الثقافى والدينى ، وذلك بالإيحاء ـ أو بالأمر غير المباشر ـ بتغيير مناهج التعليم فى مدارسنا وجامعاتنا ، معللين ذلك بأن المنهج الحالى يربى النشء على التعصب ورفض الغير ، بل يدعو إلى التطرف والإرهاب. ومما يؤسف له أن بعض المثقفين والمفكرين فى العالم الإسلامى تجاوبوا مع هذه النغمة ، فانضموا إلى المطالبين بتغيير المناهج الدينية، والبعض الآخر غلف توجهه الفكرى بغلاف رقيق، كى يبدو مستقلا عن هذه الدعوة ، ويوحى بأن ما يطالب به هو رغبة ذاتية فى التطوير ومسايرة العصر . ومن ذلك ما شاع فى الأوساط الثقافية بما يسمى " **تطوير الخطاب الدينى** " ، إذ من يرفع هذا الشعار يحاول أن يدفع عن نفسه تـــهمة مسايرة الاتجاه الغربى ، ليبدو مدافعاً عن الإسلام ، ومدعياً أنه ـ من واقع الحرص

على تقوية الدعوة الإسلامية حتى تساير العصر ـ ينادى بتطوير هذا الخطاب .

لا أدرى !!

ما المقصود بالتطوير ؟

أهو تغيير المبادئ التى يدعو إليها الدعاة ويعلمونـــها للناس؟

أم البعد عن الآيات والأحاديث التى تحث المسلمين على الدفاع عن دينهم وهويتـــهم ؟

أم تناسى الآيات والأحاديث التى تتحدث عن مواقف غير المسلمين من الإسلام ومواجهة المسلمين لهذه المواقف ؟

أم الاعتراف بصحة الأديان الأخرى ومساواتـــها بالإسلام بما يوهم الإنسان بأن كلاً على حق ، فلا فرق أن يعتنق الإسلام أم غيره ، فالكل سواء ؟

هل يقتضى التطوير تغيير مناهج الدعوة التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥) وما هو المنهج المقترح ؟

أم أن التطوير ينصب على الأسلوب واختيار المادة التى تعرض، وذلك بالبعد عن الخرافات والأساطير، وتجنب كل ما يدعو إلى العنف والإرهاب ، وتفادى كل ما من شأنه غرس اللامبالاة ، والكسل ، والسلبية فى مجال الإنجازات الحضارية ، والتأكيد على دعوة الإســـلام إلى العمل والإتقان، وحث المسلمين على إعمار الأرض لبناء الحضارة ، وتحقيق التقدم فى

جميع المجالات : زراعية ، وصناعية ، وتجارية ، وفنية ، وإبداعية ...و...و ....إلخ كما فعل المسلمون فى عصر صدر الإسلام ؟

كان من الأولى منهجياً أن أجيب أولا عن السؤال الأول ، ألا وهو : **ما المقصود من التطوير ؟** ، ولكن طبيعة عرض الموضوع ، والهدف منه يحتم علىّ أن تكون الإجابة عن هذا السؤال فى الختام ، وسوف يتبين القارئ هدف هذا التأخير .



تغيير المبادئ

هل يُقصَد من التطوير تغيير المبادئ التى يدعو إليها الدعاة ويعلمونــها للناس ؟

هذا هو ماترمى إليه القوة الكونية الوحيدة ـــ والتى نصبت نفسها حامية الحمى ـــ فى العالم ، لأنـــها ترى أن مبادئ الإسلام تغرس فى نفوس المسلمين كراهية الآخر، وتدفعهم إلى عدم قبوله، ومحاولة تدميره. ولم يقف الأمر عند الرغبة فى هذا التغيير، بل وصل إلى أسلوب الإملاء مشفوعاً بالتهديد بالسلاح. وقد اتخذ الغرب خطوات عملية لتنفيذ ذلك فوزعوا الأدوار عليهم، حيث اتفقوا فى اجتماع مجموعة الثمانية على أن تقوم كل دولة بتنفيذ ما يطلب منها تغييره فى القطر الذى عينته المجموعة لها من الأقطار الإسلامية والعربية .

وهذا يذكرنا بماحدث فى معاهدة سايكس بيكو فى القرن الماضى، حيث قسمت تركة الخلافة الإسلامية على الدول الأوربية التى انتصرت فى الحرب العالمية الأولى. لم يحرك أحد من العالم الإسلامى ساكناً إزاء هذا التوزيع فى القرن الحادى والعشرين، بل ساد الصمت والكتمان على هذه الأخبار ربوع أقطارنا؛ إذ لم نسمع صوتاً واحداً يعلق على هذا الاتفاق، بل لم يجرؤ أحد على

نشره فى أى وسيلة من وسائلنا الإعلامية(١) الغارقة فى نشر وإذاعة ما يساعد على تدمير شبابنا ، بدل أن يبينوا لهم ما ينسج حولهم من شباك، وما يرسم لهم من خرائط ثقافية تقضى على هويتـــهم، وتمحو كيانـــهم ، وتطمس معالم دينهم .

يجب على المسلمين أن يتمسكوا بمبادئهم ، فيحفظوا دينهم ، ويحموا هويتهم من التآكل والتحلل وسط التيارات المتدفقة من الغرب، حتى وإن أدى ذلك إلى بذل كل ما لديهم من قوة ، واستخدام كل ما تحت أيديهم من أسلحة: سياسية واقتصادية وتجارية ..و...و... إلخ ، فإن اقتضى الأمر فى آخر المطاف إلى حشد الجيوش فلا يتراجعوا...وإلا ذابت هويتـــهم ، واندثرت عقيدتـــهم ، وضاعت ثرواتـــهم ، فلا يملكون إلا الركوع أمام أعدائهم ، يلتقطون ما يرمونه تحت أقدامهم من فتات، ويفتشون فى صناديق نفاياتـــهم عن بقايا طعام يسدون به رمقهم ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : **" يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها " قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ! قال : " لا ! ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينـــزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن " قلنا : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : " حب الدنيا وكراهية الموت ."**(٢)

---

(١) كشف النقاب عنه شخصية إعلامية كبيرة فى معرض حديثـــه فى إحـــدى الفضائيات العربية .

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد بن حنبل ٨٦٩٨ ، ٢٢٤٥٠ و مصـــنف ابـــن أبى شيبة ٣٣٧٤٧ و مســـند الشـــاميين ٦٠٠ و مســـند الطيالســـى ٩٩٧ و المعجم الكبير ١٤٥٢ .

دب الضعف فى قلوبنا ، فارتعدت فرائصنا مما فعلته القوة العظمى الوحيدة في العالم، وخارت قوانا من فرط الهلع الذى أصابنا ، عندما رأينا ما حدث لإخواننا فى أفغانستان والعراق، فلم نحرك ساكناً ، ولم ننبذ ببنت شفة اعتراضاً - بمجرد اعتراض - على هذا الاعتداء ، ووقفنا مذعورين مما سيحل بنا عندما يجىء دورنا ، فشُلت إرادتنا ، وتعطلت حواسنا ، فأصبحنا جثة هامدة، خرجت من الحياة ، وودعت الوجود ، وتنتظر من يواريها التراب.

***

البعد عن نصوص مقدسة

هل يقصدون من التطوير البعد عن الآيات والأحاديث التى تحث المسلمين على الدفاع عن دينهم ؟

ليس هناك تشريع دينى ، أو قانون مدنى ، يحرم على المرء أن يدافع عن نفسه، ويحمى هويته، ويحافظ على ممتلكاته، فالتشريعات الدينية تحث المتدينين على مقاومة من يعتدى عليهم، وتطلب منهم بذل النفس والمال فى سبيل الدفاع عن حرماته، سواء كانت نفساً، أو مالا، أو أوطاناً. ولما كانت عقيدة المرء هى أساس هويته، وصلب كيانه ووجوده ، فمن الطبيعى أن يقاتل دونها حتى الموت ؛ إذ لامعنى لوجوده بدون هوية ، ولا فائدة لحياته من غير عقيدة يستظل بظلها ، ويشعر بالارتياح والطمأنينة فى رحابها . كذلك يعطى القانون الدولى ، والمعاهدات الأممية لكل من يُعتَدى عليه الحق فى الدفاع عن نفسه ودينه ووطنه بكل ما يملك . فإذا طلبت القوة الدولية " الوحيدة " فى العالم من المسلمين أن يهملوا الآيات والأحاديث التى تحثهم على الدفاع عن دينهم وأوطانهم ، فإنما تطلب المستحيل دينياً وقانونياً ، ومن يجيب طلبها هذا ، فهو خائن لوطنه ، متنكر لدينه ، غافل عن أبسط قواعد الحياة الإنسانية ؛ لأن تعليم النشء الدفاع عن الوطن هو حماية للنظام الكونى ، وتأمين للحياة الاجتماعية ، وأمن وأمان لحياة الأمم والشعوب، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ (البقرة : ٢٥١). ويقول : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ (الحج : ٤٠). أى لولا أن كل إنسان يدافع عما يملك ويحمى ما عنده لخربـــها المفسدون فى الأرض .

وعليه ، فلا يمكن من الناحية الواقعية حذف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحث على الدفاع عن النفس والدين والوطن من المناهج الدراسية ، وإنما المطلوب أن نبين للنشء أن الآيات والأحاديث لا تحث على القتال، لمجرد القتال ، أو للاعتداء على المسالمين ، وإنما تغرس فيهم الاستعداد لبذل النفس ضد من يعتدى عليهم ، يقول الله تعالى : ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة :١٩٤). ويقول :﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال:٦١).، ويقول : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨) ، فالتربية الإسلامية تُركّز على تكوين المسلم تكويناً سليماً ، بحيث يحترم القانون الدولى ، ويميل إلى السلم ، ويتعاون مع الشعوب على إقرار العدل والسلم فى ربوع الكرة الأرضية ، فإن لم يروا من الآخر إلا شهوة الاعتداء على أوطانـــهم، بالطائرات والدبابات، فيجب عليهم أن يدافعوا عن أوطانـــهم، وذلك منهج يقبله كل عاقل،وتقره الشرائع الدولية .

***

اعتراف المسلمين بصحة الأديان الأخرى

هل يقصدون من التطوير اعتراف المسلم بصحة الأديان الأخرى ومساواتـــها بالإسلام، بما يوهم المسلم بأن كلاً على حق، فلا فرق أن يعتنق الإسلام أم غيره ، فالكل سواء ؟

هذا فرض مخالف للمنطق ، ويتصادم مع الواقع التاريخى ، وينافى مفهوم العقيدة ؛ ذلك أن المنطق ـ وخاصة فى مجال الأديان ـ يأبى تعدد الحق ، فالمؤمن بدين ـ أياً كان هذا الدين ، سماوياً أو بشرياً ـ يرى أن ما يدعو إليه دينه هو حق مطلق " Absolute Wahrheit " ، لا يشاركه دين آخر فى هذا ، وإلا تعددت المطلقات ، وهو ما ينكره العقل ، فلا يمكن ـ من الناحية المنطقية ـ لإنسان أن يؤمن بأن كل الأديان صحيحة ، ثم يختار أحدها ـ دون مبرر لهذا الاختيار ـ فيعتنقه ويرفض ما عداه، وإلا جاز له أن يؤمن بـــهذا اليوم ثم يكفر به غداً وينتقل إلى آخر . **فذلك عبث لا يقره من كان عنده ذرة من تفكير ، أو كان لديه مسحة من التمييز بين إقل الأشياء شأناً فى الحياة الإنسانية .**

كذلك لم يحدث فى التاريخ أن جماعة اعتنقت مبدأ ما ، أو ديناً ما ، وهى تؤمن أن الحق الذى آمنت به ـ وخاصة فى مجال الأديان ـ لا ينفرد بالصواب ، بل يشاركه فى ذلك أديان أخرى، فالكل صحيح ، فليس هناك دين باطل ، لأنـــها كلها تتساوى

فى وحدة المصدر ، وصحة المبادئ ، وسلامة الاعتقاد ، **لأن ذلك هراء ، وانحراف فكرى ، يقرب من حافة الجنون .**

فيجب على المسلم أن يؤمن إيماناً راسخاً بأن الإسلام هو دين الله الحق ، وأن ماعداه نتاج بشرى ، انحرف فى معظم مبادئه عن الطريق المستقيم ، فأصبح لا يلبى حاجات الإنسان، ولا يضبط مسيرة الحياة فى المجتمعات الإنسانية ، أو دين سماوى ، ضاعت منه معالم الألوهية من جراء ما أدخله الكهان من تعديلات وإضافات، فهو دين اختلط فيه الوحى بالآراء البشرية التى وصلت إلى مرتبة القدسية ، فصُبغَت صبغة إلهية .

وكذلك يرفض المسلمون التطوير إذا كان المقصود منه اعترافهم بصحة الأديان الأخرى ومساواتها بالإسلام. وليس معنى ذلك أن المسلم مطالب ـ دينياً ـ أن يعلن القطيعة مع غير المسلمين، أو يشن عليهم حرباً فكرية، فيسب دينهم ، أو يستهزئ بعقيدتهم ، أو يلعنهم ، فذلك ضد تعاليم الإسلام ، يقول الله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ (الأنعام: ١٠٨) ، فلا استهزاء بالعقائد الأخرى، ولا سباب ولا شتائم للمؤمنين بها ، بل إن القرآن الكريم بين للمسلمين أن يعترفوا بهذه العقائد كدين له من يعتقده، يقول الله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ • لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ •وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ •وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ • وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ • لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ (الكافرون: ١-٦)، فالعقائد الأخرى ـ مهما كانت درجتها من الصحة ، وعلى أى وضع كانت علاقتها بالوحى السماوى ـ هى

فى نظر الإسلام أديان ، يجب معاملة معتنقيها معاملة إنسانية ، فاحترام إنسانيتهم واجب . مرت جنازة على رسول الله ﷺ ، فقام إجلالا لها ، فقال له بعض أصحابه : إنه يهودى، فقال له رسول الله ﷺ : " أليست نفساً إنسانية " [1] ، وحقوقهم فى الحياة مكفولة ، والتعامل معهم جائز، والحوارمعهم مطلوب ، وتبادل الخبرات بيننا وبينهم مبدأ إسلامى، يقول رسول الله ﷺ : " الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها " [2]

***

(١) قارن! صحيح مسلم جـ ٢ ص ٦٦٠، و مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٣ ص ٣٣٤

(٢) قارن ! سنن الترمذى جـ ٥ ص ٥١، وسنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٣٩٥، ومصنف ابن أبى شهبة جـ ٧ ص ٢٤٠ ، ومسند الشهاب جـ١ ص ١١٨ .

تغيير مناهج الدعوة

هل يقتضى التطوير تغيير مناهج الدعوة التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥)

الإسلام دين عالمى ، نزل لكل البشرية على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وعلى تباين أعراقهم وأجناسهم ، وعلى تباعد أقطارهم وأوطانهم ، ومن مقتضى عالميته أن يرسم منهجاً للدعوة، يخاطب جميع البشرية، مراعياً فى ذلك: اختلاف الثقافات، وتعدد الأفكار والمفاهيم، وتباين درجات الرقى والتقدم، وتباعد الأزمان والعصور. ولا يمكن لأى بشر، مهما بلغ من الذكاء والعبقرية، ومهما حصَّل من أنواع الثقافات المختلفة ، أن يضع منهجاً للدعوة ، بحيث يؤثر فى كل الناس، على اختلاف مستواهم الثقافى والحضارى، ولا يستطيع أن يرسم أسلوباً للدعوة، يصلح لكل زمان ومكان، بحيث يجد آذاناً صاغية من محدودى الثقافة فى كل عصر، ويقنع العلماء والمفكرين، مهما اختلفت مذاهبهم الفكرية ، وتعددت رؤاهم الثقافية على امتداد التاريخ .

لكن العلى القدير، المبدع لهذا الكون، وخالق النفس الإنسانية، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، العليم بكنه النفس ، وخلجات القلب فى كل زمان ومكان ، هو القادر وحده

على أن يضع منهجاً للدعوة ، صالحاً لمخاطبة من يعيش فى الصحارى والقفار ، ولا يعرف من الكون إلا ما يحيط به من حيوان ونبات وأحجار ، كما هو صالح لإقناع من بلغوا فى الحضارة شأواً ، مكنهم من السيطرة على الأخضر واليابس على الكرة الأرضية ، بل وصلوا من العلم درجة حملتهم إلى بعض الكواكب السيارة ، منهج الله فى الدعوة - المحكم ، الشامل ، الذى يستوعب كل ألوان الخطاب ، لكل أنواع البشر ـ رسمته آية واحدة من آيات القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ثلاث طرق فى الخطاب تصلح لمخاطبة كل القطاعات فى المجتمع الإنسانى، بدأها الله سبحانه وتعالى بأسلوب الخطاب العقلى ، وهو المراد بقوله تعالى : " **بالحكمة** " ، فالحكمة هى العقل ، وقدرات العقل متفاوتة ، تمتد من البدائي الذى لا يعرف إلا المحسوسات ، حتى أرقى درجاته ، وهم الفلاسفة والمفكرون ، وأرباب الإبداع فى جميع المجالات . فعلى الداعية أن يراعى من يخاطبه ، فإذا كان قليلى الثقافة خاطبه بما يفهم ، كي يقنعه بمبادئ الإسلام ، وإن كان من متوسطى الثقافة ارتقى بأسلوبه فى الدعوة إلى المستوى الذى يناسبه . أما إذا كان من المفكرين ، فعليه أن يدعوه إلى الإسلام بخطاب يناسب مستواه الفكرى ، ويتفق مع تخصصه العلمى ، فالمستوى الثقافى للمدعوين هو الذى يحتم على الداعية أن يسلك الطريق المناسب ، ويلتزم بالأسلوب الذى يفهمه المستمعون ، فإذا كانوا على درجة عالية من الثقافة ، فيلزمه أن

يرقى بأدلته العقلية إلى مستواهم حتى يكون لكلامه أثر فى نفوسهم، وتصادف أدلته قبولا فى عقولهم . وإن كانوا متوسطى الثقافة فعليه أن يخاطبهم بما يفهمون ، ويدعوهم بالأسلوب المناسب لمداركهم الثقافية ، وفى القرآن الكريم صور متعددة لهذا المنهج ، فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكائنات ، والتأمل فيما فيها من دقائق الصنع ، وبدائع الإحكام والإتقان ، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم : ٢٢). وقال: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ • خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ • يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق : ٥-٧)، ولا شك أن هذا موجه إلى من يستطيع بقدرته الفكرية أن يتوصل إلى دقة الصنع فى الكون ، ومعجزة الخلق فى الإنسان لعله يهتدى بهذه الأدلة إلى الإيمان بالخالق جل وعلا .

وفى آيات أخرى يوجه الخطاب إلى من هم أقل ثقافة ، فيقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج : ٧٣). ويقول : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً﴾ (الفرقان : ٣).

وقد كان رسول الله ﷺ يخاطب كل إنسان على قدر ما يفهم ، ويجادله بالدليل الذى يكون تأثيره كبيراً فى نفسه ، فقد

ورد أن رجلا يدعى الحصين ، كان ذا مكانة بين قريش ، أرسلوه يوما إلى رسول الله ﷺ ليكلمه حتى ينتهى عن دعوته ، فلما جاء إلى النبى ﷺ قال : أوسعوا للشيخ ، فقال الحصين : ما هذا الذى بلغنا عنك ، أنت تشتم آلهتنا وتذكرها ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : يا حصين ! كم تعبد من إله ؟ قال : سبعة فى الأرض وواحد فى السماء . فقال : فإذا أصابك الضر ، لمن تدعو ؟ فقال الذى فى السماء . قال : فإذا هلك المال ، من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء . قال : فيستجيب لك وحده ، وتشرك معه ؟ أسلم تسلم .... فأسلم الحصين ...[1]

فهذه الأمثلة توضح لنا أن على الداعية أن يستخدم الأسلوب العقلى مع من يدعوهم إلى الإسلام ، وأن يراعى حالة من يدعوه، فإن كان عالى الثقافة ارتقى معه فى الدليل ، وإن كان أقل فليجعل دليله مناسباً لثقافته ، ومتفقاً مع متطلبات الظروف ، ومعطيات الأحوال ، كما فعل رسول الله ﷺ مع الحصين . وهذا هو مقصود المنهج الأول الذى جاء التعبير عنه فى الآية بقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ (النحل : ١٢٥) ، فالحكمة هى استعمال الدليل العقلى مع المدعوين كلٌّ حسب حاله ، وطبقاً لدرجة ثقافته .

ويختص المنهج الثانى فى الدعوة إلى الله بتذكير المسلمين بآلاء الله ونعمه عليهم ، وإيقاظ وجدانـــهم الروحى، وإذكاء حرارة

---

(١) قارن ! سنن الترمذى جـــ ٥ ص ١٩ ؛ والمعجم الأوسط جـــ ٢ ص ٢٨٠، الآحاد والمثانى جـــ ٤ ص ٣٢٣ .

الإيمان فى صدورهم حتى تظل قلوبـــهم معلقة بالإيمان، وأفئدتـــهم مرتبطة بذكر الله ، وجوارحهم ملتزمة حدود الله ، ويساعدهم على ذلك فقههم فى دينهم ، ومعرفتـــهم أحكام شريعتـــهم ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا قام الدعاة بواجبـــهم فى هذا المجال ، فيعلمون الناس ويفقهونـــهم فى دينهم ، وهذا هو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥) ، أى يجب على المؤمنين ـ وخاصة الدعاة منهم ـ أن يقوموا بواجب تعليم الناس الأحكام الشرعية، وتذكيرهم بين الحين والآخر بما يلين قلوبـــهم ويؤثر فى نفوسهم، حتى تُسَدّ النوافذ أمام الشيطان، فلا يكون له سبيلا إلى التأثير على المؤمنين .

ومن المعلوم أن عمل الدعاة فى هذا الحقل يشبه عمل الأطباء، فكما أن الأطباء يعالجون المرضى ، ويعلمون الناس طرق الوقاية من الأمراض ، فكذلك الدعاة يعالجون علل النفوس ، ويحمونـــها من الأمراض الفتاكة بالموعظة والإرشادات والنصائح المستخلصة من الكتاب والسنة ، إذ لا تصح النفوس إلا بـــها ، ولا تسلم القلوب من المخاطر إلا بسماع ووعى ما فى الكتاب والسنة، ولا تقلع النفوس عن غيها إلا بالتذكير بما أصاب المفسدين والمتكبرين ، يقول تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات : ٥٥)

فالوعظ والإرشاد هما العلاج الناجع للأمة ، يشهد على ذلك أن الأمة التى انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار قدرتـــهم

على معالجة الأمراض الاجتماعية ، ويشتد عودها ويسلم من الأمراض كلما وجد التيار الدينى طريقه الصحيح فى نفوس أبنائها. فإذا كان الواعظ ماهراً ، والخطيب حكيماً استطاع أن يسلك من الطرق فى الإرشاد ما يشفى القلوب من أمراضها، ويوقظ الضمائر من نومها ، ويطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل ، وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها ، وتعود إلى حد الاعتدال ، وتتحلى بالفضائل والكمال .

هذا فى الجانب المعنوى الإرشادى من الموعظة الحسنة ، أما الجانب الآخر منها، فهو جانب التعليم، والتفقه فى الدين، إذ يجب على المسلمين ـ امتثالا لأمر الله بأن يعظوا المسلمين ـ أن يكون منهم مجموعة متفقهة فى الدين ، عالمة بأحكام التشريع ، تقوم على تعليم الناس أحكام دينهم، وفقه شريعتهم، حتى يؤدوا عبادتهم بالصورة الصحيحة، ويكونوا على بينة من تقييم مسائل الحياة المختلفة ، فلا تضلهم أصوات المفسدين، ولا تنحرف بهم آراء الجهال والمدعين عن الطريق المستقيم .

ولا بد من وجود هذه الفئة فى المجتمع الإسلامى ، لأنهم هم المنارة التى يلجأ إليها الحائرون ، والمصابيح التى يهتدى بنورها المهتدون ، فوجودهم ضرورى فى المجتمع ، فلا يجوز للمسلمين أن يتهاونوا فى إعداد هذه الطائفة المتخصصة فى شرح أحكام الله وتعليمها للناس، حتى ولو كانوا فى حالة تحتم على كل مسلم الانخراط فى سلك المدافعين عن الإسلام فى ميدان القتال، فقد

استثنى الله من هذا الواجب أولئك الذين عكفوا على دراسة العلوم الدينية، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة : ١٢٢)، لأن التفقه فى الدين من العوامل المؤثرة فى حياة المجتمع فى سلمه وحربه ، فهو الذى يكون المسلم الصالح ، الذى يرعى الله ـ نتيجة للتربية الدينية على أيدى الفقهاء ـ فى عمله ، ويخشاه فى سلوكه مع الناس.

وما المجتمع القوى إلا أفراداً صالحين فى أعمالهم، مستقيمين فى سلوكهم؛ إذ كلما حسنت أعمال الأفراد قويت الأمة بإنتاجها وإنجازاتــها فى جميع مجالات الحياة ، وكلما استوى سلوك الأفراد واستقامت حياتــهم، ازدادت صلابة الأمة واشتدت قوتــها، فلا يقوى عدوها على زعزعة بنيانــها، أو خلخلة تماسكها الاجتماعى .

وعليه فعمل الداعية ـ سواء كان فى مجال التعليم والتدريس، أو فى مجال التذكير والتنبيه ـ أساس بنيان الأمة، فمن يرغب فى بناء أمة قوية ، فلا ينبغى أن يهمل هذا الجانب الحيوى فى البناء .

وقد وصف الله المنهج الثالث فى مجال الدعوة بقوله : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥)، فقد يكون الحسن المطلوب هنا : اختيار الكلمة الطيبة التى لا تؤذى أحداً ، ولا تجرح كرامته ، وقد يكون سلوك أفضل الطرق الموصلة إلى إقناع الخصم مع البعد عن الحماس والانفعال الذى قد يؤدى إلى

حجب الحقيقة ، وتجنب تحقير فكر من يخالف الداعية فى رأيه ، فلا يزدريه، أو يسخر منه، أويسبه؛ إذ ما دام غرض الداعية الوصول إلى إقناع من يدعوهم بالإسلام، فلا بد أن يستميلهم ، ويكسب ثقتـــهم أولا ، لأن هذا يجعلهم يسمعون قوله، ويصغون لحجته ، ويفكرون فى أدلته .

أما إذا أغلظ القول لهم ، فإنـــهم ينفرون منه ، ويعرضون عن سماع حجته . فاللين فى القول مطلوب من الداعية حتى مع الذين آمنوا ورضيت نفوسهم بما يقول ، وخضعت جوارحهم لما يأمر به، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظاًّ غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) ، فإذا استهان الداعية برأى من يدعوهم إلى الإسلام، وعاب ما يعتقدون، فلا ينتظر منهم إلا المقابلة بالمثل، لأن الإنسان لا يسكت على إهانته ، حتى وإن تدنت طبقته الاجتماعية ، ولا يرضى السخرية بمعتقداته، حتى وإن كانت ظاهرة البطلان للعقلاء وأصحاب الفكر السليم ، فقد نـــهانا الله عن سب آلهة الكفار والملحدين ، على الرغم من بطلانـــها وعدم قيمتها فى عالم الأفكار ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام : ١٠٨) ، بل إن القرآن الكريم علمنا كيفية التصرف مع المعاندين إذا أصروا على عنادهم، واستمروا فى عبادة الأوثان والأحجار ، أو استمرءوا

الإشراك بالله، فقال تعالى مبيناً ما يجب اتباعه مع الكفار : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ • لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ •وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ •وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ •وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ • لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ١-٦)، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٦٤)، أى إذا بلغ الداعية رسالة ربه إلى من يعبد آلهة من دون الله، وحاجهم بالقول اللين ، والحجة الواضحة فأصروا على دينهم، ولم يتجاوزوا هذا الإصرار، فلم يحاربوا الدعوة، ولم يقفوا فى طريق عمل الدعاة ، فلنتركهم وشأنـــهم ، لأن مهمة الداعية هى التبليغ فقط ، فلا يتجاوزها إلى فرض الإيمان بالقوة ، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ:﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩).

كذلك يكون الحسن فى المجادلة باتباع أسلوب المجادلين ، أى محاورتـــهم بالمنهج الذى يتبعونه ، فإن كانوا فلاسفة ومفكرين ، فليسلك الداعية معهم حواراً فكرياً حول طبيعة الكون ومصدره ، ومركباته المتناسقة فى تفاعلها وانسيابـــها،كما يناقشهم فى مفهوم الحياة وغاياتـــها، وعلاقة الإنسان بما حوله من ظواهر طبيعية، وما فى داخله من تركيبات فسيولوجية، وعوارض نفسية وروحية. وإن كانوا اقتصاديين فليبين لهم أحكام الإسلام وتشريعاته فى

عملية المال فى المجتمع، وكيفية توزيعه على أفراده . وإن كانوا اجتماعيين فيشرح لهم أثر الإسلام فى تكوين الخلايا الاجتماعية، وأهمية تعاليمه فى تنظيم العلاقات بين جميع أطراف الجنس البشرى ...... وهكذا مع كل مجموعة ، يكون حديثه مطابقاً لاهتمامات أفرادها وتخصصاتـــهم ، حتى العامة من الناس،فإنه يسلك معهم طريقاً تتفق مع معلوماتـــهم ، وتتناسب مع قدراتـــهم الفكرية .

أما إذا تجاوز المدعوون حدود الجدل الفكرى ، فاعتدوا على المسلمين ، أو حاربوا الدعاة بأساليب تخرج عن دائرة الحوار الفكرى إلى استعمال القوة واستخدام السلطة ، فإن حسن المجادلة فى هذه الحالة لا يكون إلا بالمثل ، وهو المجابـــهة بالقوة، **ولا يقوم الدعاة بـــهذا ، لأن الأمر فى هذه الحالة خارج عن طاقتـــهم وتخصصهم ، بل يكون ذلك واجب الحاكم ، أو ولى الأمر ،** فهو فى هذه الحالة مدعوٌّ إلى الدعوة إلى الله بما يملك من سلطان وقوة ، يقول الله تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ • الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (الحج : ٣٩-٤٠).

فالمنهج الثالث ، وهو : " المجادلة بالتى هى أحسن " يتضمن القول الحسن والأسلوب اللين ، واختيار الأدلة التى تتفق مع درجة ثقافة المجادلين ونوع تخصصهم، كما يتضمن استعمال القوة ،

عندما يعلن الخصم العداوة ، ويستخدم سلطانه وقوته لمنع الدعاة من نشر الدعوة ، أو يستخدم جبروته فى تعذيب من آمن بالإسلام والتنكيل بـــهم .

كان أسلوب الدعوة منذ صدع محمد ﷺ بالأمر متسماً بالحكمة ، فلم يعرض الإسلام على أصحاب الأديان والمعتقدات الأخرى إلا من زاوية العقل ، ولم يطلب منهم الاعتراف بتعاليمه وأحكامه إلا بناءً على اقتناع وتسليم به ، لا خضوعاً لتقليد ، أو خوفاً من سلطان وتعذيب . كذلك تعهد الرسول ﷺ أصحابه بالرعاية ، فعلمهم أحكام الله بأسلوب لين ، وأيقظ مشاعرهم الدينية بمواعظ هزت أفئدتـــهم ، ورقق قلوبـــهم بتلاوة وحى الله عليهم، وقوَّم سلوكهم بما ضربه لهم من أمثال : سلوكا ، وقولا ، واستشهاداً بما حدث مع الغابرين ، كما أفحم المجادلين والمعاندين بقوة بيانه ، ونصاعة حجته ، وحسن اختياره الأسلوب المناسب ، والمنهج المؤثر فيهم .

كان هذا المنهج فى التبليغ تشريعاً للدعاة من بعده ، يسيرون عليه إن أرادوا لدعوتـــهم النجاح والاستمرار ، لأنه يغطى جميع فئات البشر ، سواء منهم الذى يسمع نداء الدعوة لأول مرة ، أو من آمن وانخرط فى سلك المسلمين ، أو من وقف معانداً ومكابراً، وكذلك من تجرأ فأعلنها حرباً على الإسلام والمسلمين . فلكلٍّ أسلوب يخاطب به ، ومع كلٍّ طريقة يجب على المسلمين اتباعها ، يقول الإمام الغزالى فى كتابه : " **القسطاس المستقيم** " : " إن

المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة قوم ...فإن الحكمة إذا غذى بـــها أهل الموعظة أضرت بـــهم ، كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير ، وإن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها، كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى...وإن من استعمل الجدال مع أهل الجدال، لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن الكريم ، كان كمن يغذى البدوى بخبز البر وهو لم يألف إلا التمر ، أو البلدى بالتمر وهو لم يألف إلا البر .

غير أن بعض الباحثين يرى أن هذا التقسيم ليس تقسيم مجموعات البشر بالنسبة لمواقفهم من الدعوة ، بل إنه بيان لحالات تعترى الشخص الواحد ، إذ فى الإنسان ثلاث قوى : القلب والعقل والعاطفة ، ولكلٌ أسلوب ومنهج يخاطب به . ولما كان الإسلام ديناً عاماً لكل الناس ، وهو أيضاً دين منطق وحكمة ، يهدف إلى تربية جميع حواس الإنسان ، كان من الطبيعى أن يخاطب كل فرد من أفراد المجتمعات الإنسانية ، ويتجه فى الوقت نفسه إلى تربية كل القوى النفسية ويهذبـــها لتتضامن جميعاً فى الإيمان وفى تربية الشخصية الإنسانية .

وعليه فأسلوب الدعوة ينبغى أن يكون مرناً ، فيتشكل حسب الظروف والملابسات كى يصلح لطوائف الناس، عندما تبرز المواجهة التى تظهر فى المجتمعات الإنسانية حين يُدعَى الناس إلى اعتناق دين جديد ، أو يشيع فى المجتمع تيار فكرى مستحدث،

فيبدأ الداعية بعرض الدعوة بأسلوب عقلى ، فإن آمن المدعو ، علّمه أحكام الشريعة ، وأيقظ مشاعره الدينية بالموعظة الحسنة ، أما إن كابر وجادل ، تعامل معه الداعية بالأسلوب المناسب حتى لا يخرج فى دعوته عن المنهج الحسن .

كما ينبغى على الداعية أن يكون مستعداً فى كل وقت للرد على أسئلة كل من اعترته بعض الشبـــهات، فإن كان مجرد استفسار نتجت عنه غيوم فكرية ، أزيلت بالأسلوب العقلى ، وإن تمكنت من المعترض فدفعته إلى المجادلة دفاعاً عن تيارات فكرية مضللة ، فعلى الداعية مجادلته بالتى هى أحسن ، وإن كان بعيداً عن هذا وذاك فليتعهده الداعية بالموعظة الحسنة ، وتعليمه أحكام الله . وليتذكر الدعاة قول الله تعالى : ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ (طه : ٤٤).

وعليه فلا تُقْبَل دعوة تطوير الخطاب الدينى منهجياً ، لأن منهجها رسمه الله فى القرآن الكريم ، ولأنه منهج صالح لكل زمان ومكان كما بيّنّا ، غير أنه يجب تصحيح ممارسة الدعاة للخطاب الدينى ، وذلك بتأهيلهم تأهيلا صحيحاً ،بحيث يصبحون قادرين على استعمال الخطاب المناسب لمن يتحدثون إليهم ، فلغير المسلم أسلوب، وللمسلم خطاب، وللمعاندين والمناوئين لغة وطرائق متعددة ومتدرجة ، فلا يتعدى معهم منطقة النقاش والمحاورة إلى استعمال القوة والعنف ، فذلك خارج عن مهمته ووظيفته. وذلك ما ينبغى أن يفهم من دعوة إصلاح الخطاب الدينى :

- تصحيح لا تطوير
- توجيه للدعاة باستخدام الأسلوب الصحيح فى مجال الدعوة .
- لا مطالبتـــهم بأن يخضعوا لتوجيهات القوة الأولى فى العالم.
- السماح لهم بحرية الكلمة كما يطالب بذلك دعاة الديمقراطية .
- لا تكميم للأفواه ، أو الحمل على ترديد ما تمليه عليهم قوى البغى والطغيان .
- فلا ينبغى أن يمنعهم من الكلام إلا المحافظة على حرمة الآخرين واحترام عقائدهم ، وعدم المساس بمبادئ النظام العام ، سواء على المستوى المحلى ، أو طبقاً لما تعارفت عليه الشعوب ، وأقرته المنظمات الدولية .



البعد عن الخرافات والأوهام

هل يُقْصَد بالتطوير البعد عن الخرافات والأوهام ، وتجنب كل ما يدعو إلى العنف والإرهاب ؟

تنقسم أساليب الإقناع إلى قسمين :

الأول : خطابى وجدانى .

الثانى : برهانى عقلى .

فالمجتمعات البدائية، والطبقات الاجتماعية ذات الثقافة المحدودة فى المجتمعات المتقدمة تتأثر بالأسلوب الخطابى الوجدانى ؛ إذ ليس لها من قوة الإدراك ما يمكنها من فهم البراهين العقلية - وهى لا زالت شريحة واسعة تستغرق فى كثير من المجتمعات المعاصرة معظم الطبقات الاجتماعية - وليس عندها الاستعداد الذهنى لفهم القضايا المجردة ، والأدلة القائمة على أساس علمى ، سواء أكان ذلك فى مجال الافتراضات العقلية، أو فى ساحة الاختراعات العلمية والاكتشافات الكونية، فهى تميل إلى المحسوس، وتستهويها القصص ، وتخضع كلية لأوهام الخرافات، وترهات الأساطير ، ولهذا نجد الأديان - وخاصة ما يسمى بالأديان البشرية - مليئة بهذا النوع من الأساليب ، لأنها كانت - ولا زالت - تخاطب مجتمعات بدائية ، أو شعوباً معظم أفرادها واقع تحت سيطرة الفكر الخرافى ، فكان لابد من استخدام هذا الأسلوب

الوجدانى للتأثير عليهم فكرياً ، حتى ينقادوا لمبادئ الدين، وينفذوا تعاليمه ..حتى الأديان السماوية لم تخل من هذا النوع من الفكر ، لأنــها تخاطب كل الناس، ومنهم ـ وهم الأغلبية ـ من لا يستطيع فهم البرهان العقلى، فكان لابد أن يُسْتَخْدَم الأسلوب الخطابى الوجدانى لإقناعهم بصحة المبادئ الدينية الموحى بــها من الله سبحانه وتعالى، غير أن مضمونــها يختلف عما جاء فى الأديان البشرية ، وأسلوبــها يقود من يتأمله ويفكر فى دقائقه ـ حتى ولو كان على درجة عالية من الثقافة والفكر ـ إلى أنه حقيقة لامراء فيها، وأن ظاهره أسطورة ، وباطنه حقائق علمية تقوم على أساس فكرى سليم ، يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِــهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِــهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ** ﴾ (البقرة: ٢٦)، فضرب الأمثال نوع من الأسلوب الخطابى الوجدانى الذى يؤثر فى عامة الناس، فكان لابد أن يوجد هذا النوع فى القرآن الكريم ، وإلا خرج معظم أفراد المجتمع الإنسانى من دائرة الخطاب الدينى ، وانصرفوا عن الاستماع إلى كلمة الله ، لأنــهم لن يفهموا أسلوب البرهان العقلى.

وعليه فيجب على الداعية أن يكون ملماً إلماماً تاماً وشاملا بأسلوبى الإقناع : الخطابى والبرهانى ، وأن يدرك أن لكلٍّ مجالا ، فلا يستعمل البرهان العقلى مع عامة الناس الذين لاحظ لهم من الثقافة ، ودرجة إدراكهم الذهنى متواضعة ، حتى يكون لكلامه

أثر فى نفوسهم ، وذلك بفهم أدلته الحسية ، وضرب الأمثال المؤثرة فى وجدانـــهم ، وسرد القصص الهادفة لإقناعهم بتعاليم الإسلام ، وسرد الحكايات التى تجسد المبادئ الإسلامية المجردة فى أفئدتـــهم ، ولكن ...لايستغرق فى هذا النوع بحيث يؤثر سلباً على سلوك المؤمن فى حياته ، وإبداعاته ، ونشاطه فى المجالات الاجتماعية والعلمية المختلفة ، كذلك لايستخدم هذا الأسلوب مع المثقفين والمفكرين، حتى لا ينصرفوا عنه مللا، واستهزاءً بما يسمعون من أقاويل لا يقبلها العلم، ولا يقرها المنطق، ولا يستسيغها المشتغلون بالبحث فى طبيعة الكون والإنسان .

وليس هذا تطويراً للخطاب الدينى ، بل تصحيحاً لمساره ، بحيث يدرك الداعية أن لديه أنواعاً من الأساليب ، وأمامه شرائح اجتماعية وثقافية متعددة ومتنوعة، فيخاطب كل شريحة بالأسلوب الذى يناسبـــها، ويتحين الوقت الملائم، والمكان المناسب، ولا يتمادى فى نوعٍ مّا من هذه الأساليب إلى درجة ينتج عنها ضرر من أى نوع ، فهو كالطبيب، يصف الدواء المناسب، بالجرعة المناسبة ، لا يتجاوز الحدود ، حتى لا يفقد الخطاب الدينى تأثيره على الناس ، أو يؤثر تأثيراً عكسياً كما هو الحال اليوم فى كثير من ميادين وجوده ، وساحات ممارساته .

***

دعوة الإسلام إلى العلم والعمل

هل يقصد بالتطوير تفادى كل ما من شأنه غرس اللامبالاة، والكسل ، والسلبية فى مجال الإنجازات الحضارية ، والتأكيد على دعوة الإسلام إلى العمل والإتقان ، وحث المسلمين على إعمار الأرض لبناء الحضارة ، وتحقيق التقدم فى جميع المجالات : زراعية ، وصناعية ، وتجارية ، وفنية ، وإبداعية ...و... و..إلخ ؟

لا يركز الإسلام فى أوامره ونواهيه على العبادات فقط ، بل تتسع أوامره ونواهيه لتشمل جميع مناحى الحياة على اختلاف ميادينها ، وتنوع مقاصدها ومراميها ، بل إن العبادات فى الإسلام وسيلة لا غاية ، وسيلة لتكوين شخصية الإنسان ، وتـــهذيب أخلاقه، وتقويم سلوكه ، كى يؤدى واجبه على الوجه الأكمل فى إعمار الأرض ، واكتشاف ما فى الكون من عناصر وأسرار تساعده على الاستمتاع بما فيه من طيبات ، وتحصين نفسه ضد أخطاره ومساوئه . فالعبادة المقصودة فى قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون** ﴾ (الذاريات : ٥٦)، ليس معناها ما يُؤدَّى من صلاة وزكاة وصيام وحج فقط ، بل تشمل أيضاً كل ما يطلب من عمله لإعمار الأرض ، فالقرآن الكريم يحث فى كثير من آياته الإنسان على العمل ، منها قول الله تعالى :

﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّه**﴾ (الجمعة : ١٠) ، أى اخرجوا من المساجد واعملوا فى أرض الله الواسعة سعياً فى تحصيل الرزق .

وقول الله تعالى :

﴿ ... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..... ﴾

(هود : ٦١).

ولا يكون الاستعمار إلا بالعمل الدءوب فى البحث فى باطن الأرض وظاهرها للحصول على ما يساعد فى بناء حضارة ، واكتشاف ما حوله ليستفيد منه ، سواء كان ذلك نفعاً فيطوره ويستخدمه، أو ضراً فيتجنبه ويبتدع من الأساليب والمواد ما يحميه منه .... وغير ذلك من آيات قرآنية حثت المسلم على العمل ، وحذرته من الكسل واللامبالاة ، وأمرته بإتقان ما يقوم به من أعمال . وجاءت الأحاديث النبوية مؤكدة لهذه المعانى وموضحة لها ، قال رسول الله ﷺ : " **إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه** "[1] ، وقال : " **إذا قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة ، واستطاع أن يغرسها فليغرسها** " [2]

ولو أردنا إحصاء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تصب فى هذا المجال ، مجال العمل الدنيوى ، والحث على الإتقان والإبداع والابتكار ، واكتشاف أسرار الكون ـ وهى الأمور التى تقوم عليها الحضارة الإنسانية ـ لضاق بـــها مقام هذا الحديث ، ويكفى أن نركز على القاعدة الأساسية التى تقوم عليها الحضارة ، ألا وهى **العلم** ، فقد حثت أول آيات نزلت من القرآن الكريم عليه ، وهى قول الله تعالى :

---

(١) مسند أبى يعلى جـــ ٧ ص ٣٤٩ ، و المعجم الأوسط جـــ ١ ص ٢٧٥

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـــ ٣ ص ١٩١ .

﴿ اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ • خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ • ﴾ (العلق : ١-٥).

لم يبدأ القرآن الكريم بتحريم عبادة الأوثان التى كانت منتشرة فى مكة ، ولم يفتتح آياته بأمر أهل مكة بعدم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان الذى كان سائداً فى مكة، حيث كان العبيد يقاسون من ظلم أسيادهم ، وحيث كان لا يستطيع أحد أن يعيش سالما فى هذا المجتمع إلا إذا كان فى كنف (أى جوار) أحد السادة ، وغير ذلك من صور الظلم والفساد التى كانت متفشية فى حياة المجتمع المكى ، بل آثر القرآن الكريم أن يبدأ بتوجيههم إلى العلم ، لأن العلم الصحيح هو العلاج لكل مفاسد الأرض ، وهو الحصن الذى تتحصن به المجتمعات ضد ما يهدد كيانها ، ويفسد حياتها ، بل يساعد على بث الأمن والطمأنينة فى ربوع الحياة الاجتماعية ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى فى سرده لحديث الله مع الملائكة ، عندما أراد خلق آدم عليه السلام ، يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة: ٣٠).

ويبدو من تعليق الملائكة على إخبار الله لهم ، بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، أنهم كانوا على علم ودراية بما يمكن أن يحدثه هذا المخلوق من فساد فى الأرض . ولم ينف الله إمكانية حدوث

الفساد منه ، بل رد عليهم رداً له مغزى كبير فى مجال التربية الإنسانية ؛ ذلك أنه بين لهم أنه يعلم ما خفى علمه عليهم ، وهو أن التعليم والثقافة من العوامل التى يمكن أن تحد من هذا الفساد ، أو تقاومه ، فلا تترك له السيطرة على حياة الإنسان ، يشير إلى ذلك قول الله تعالى :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ • قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ • قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة : ٣١-٣٣).

فقد وضع تفوقه عليهم فى العلم رداً على سبب اعتراضهم على خلقه بأن سيفسد فى الأرض ، وتلك إشارة إلى أن العلم من شأنه أن يمنع الانحراف فى المجتمع ، ويقاوم الفساد فى الأرض ، فمن مهامه تقويم السلوك ، وتــهذيب الأخلاق ، وهداية الإنسان إلى فعل ما يعود عليه وعلى المجتمع بالخير العام .

وليس بلازم ـ طبقاً لتجربة التاريخ الإنسانى ـ أن يقضى العلم على جميع صور الفساد فى المجتمعات التى بلغت شأواً كبيراً فى مجال العلوم والثقافة ، ولكنه ـ على الأقل ـ يحد منها ، أو يقضى على الصور الصارخة منها ؛ فلو قارنا بين شريحة متعلمة ، وأخرى لم تنل حظاً كبيراً من التعليم ، لوجدنا أن معدل الفساد فى الثانية

أعلى منه فى الأولى، ولتبين لنا أنه حتى لو حدث الفساد فى الأولى، فإن صوره تكون أكثراحتمالا، وأقل ضرراً من الفساد فى المجموعة الثانية . ولهذا لم ينف الله ـ سبحانه وتعالى ـ وجود الفساد من هذا المخلوق الذى سيجعله فى الأرض خليفة ، لأن من طبيعته الميل إلى عمل الشر، والنــزوع إلى ارتكاب أعمال قد تحدث الفساد فى الأرض .

وهذه نظرية لم تكن معروفة بــهذه الدرجة فى المجتمع المكى، يوم أن نزل الوحى على محمد ﷺ . الأمر الذى يجعلنا نجزم بأن هذه المعالجة التى تضمنت معالم دراسات فى مختلف مجالات البحث عن هوية الإنسان ، لم تكن من عند محمد ، لأنه كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، ولم تكن فى مجتمعه هيئات علمية تمده بــهذه النتائج التى من شأنــها أن تكون حصيلة دراسات متعددة، بل هى من عند الله الذى يعلم كنه وطبيعة ما يخلقه، فهو أعلم بسلوكه ، وبما يميل إليه فى حياته .

فالبحث العلمى مبدأ أساسى فى الإسلام ؛ حث عليه ، بل فرضه على كل مسلم ومسلمة ، ولذا امتثل المسلمون الأوائل لهذه الأوامر فأسهموا فى جميع مناحى المعرفة : بتحصيل المعلومات ، وفحصها ، وتطويرها . كما اكتشفوا كثيراً من أسرار الكون ، ومكونات الطبيعة ، وأضافوا الكثير من النظريات إلى ماورثوه من الحضارات السابقة ، فبنوا بذلك حضارة فريدة فى مسيرة التاريخ الإنسانى، حضارة استوعبت كل ماسبقها من حضارات : يونانية، وفارسية ، وبيزنطية ، وهندية ، فمزجت العناصر الإيجابية فيها ،

وأضافت إليها ، فخرجت ثوباً قشيباً لامثيل له فى التاريخ البشرى للحضارات، والدليل على ذلك ما أنتجوه فى مجالات العلم المختلفة، ففى مجال الطب وصل المسلمون بفن العلاج إلى مستوى الكمال ؛ فقد أنشئت أول مستشفى فى بغداد، فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، ثم مالبس أن افتتحت مستشفيات مماثلة لها فى جميع أنحاء المملكة ، وكان أشهرها: "بيمارستان" دمشق ، فقد توجه إليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية، وأمه الطلبة للتدريب على مايحتاجون إليه فى امتحاناتــهم، كما كان فيه قسم خاص للإسعافات العاجلة .

امتدت الرعاية الطبية إلى جميع أنحاء الدولة ؛ إذ كان الأطباء يزورون السجون من آن لآخر لعلاج المسجونين، كما قاموا بزيارات للقرى النائية، واهتم الأطباء أيضاً بعلاج الأمراض النفسية، فلم يتجنب المسلمون المرضى، وينظرون إليهم نظرة احتقار ، كما كان يفعل الأوربيون معهم آنذاك ، واستمرت هذه المعاملة قروناً، فقد ظل المريض نفسياً محتقراً فى أوربا، وكان الأوربيون يفرون منهم كما يفرون من مرضى الجذام ، ويتجنبونــهم كما يتجنبون المجرمين .

كانت رعاية المرضى سبباً فى اكتشافات جديدة فى مجال الأدوية ، ذلك المجال الذى أصبح علم العرب الذى لاينازعهم أحد فيه؛ إذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيراً من الأعشاب فى علاج المرضى ، وأثروا هذا المجال باختراعاتــهم العديدة .

ظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب العربى ، ثم انتقلت عبر إسبانيا إلى أوربا ، فكانت أسس علم الطب فى مدارسها العليا لعدة قرون . ومن بين من كتبوا هذه المراجع : الرازى ، فقد اشتهر فى أوربا بأبحاثه الطبية ، وخاصة ما تناول فيها مرضى الجدرى والحصبة ، فقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية ، وطبعت طبعات عدة على امتداد عدة قرون، وكان آخرها طبعة نشرت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وحرصت جميع المكتبات الأوربية على اقتناء نسخ من مؤلفات الرازى . كذلك أطلق الأوربيون على ابن سينا لقب **"أمير الأطباء "**، فقد أثرى المكتبة الطبية بأبحاث طبقت شهرتها الآفاق ، فلا يجهل من له صلة بعلوم الطب كتابه " **القانون** " الذى بلغ شهرة لا مثيل لها بعد ترجمته إلى اللاتينية ، بما يضمه من أبحاث عن علم الصحة ، والفسيولوجيا ، وطرق العلاج والأدوية، وأمراض العيون ، وغير ذلك من المجالات التى لم يسبقه أحد فى بحثها .

كان ابن الهيثم من أشهر أخصائى أمراض العيون ، فقد كتب عن البصريات وانكسار الضوء، والرؤية بالعدسات، وأهمية الحجرة المظلمة فى عيادة طبيب العيون للتشخيص والعلاج ، وقد انتفع " روجر بيكون " و "كيبلر " بهذه الأبحاث .

وكان أبوالقاسم ـ الأسبانى المولد ـ أشهر جراح فى ذلك العصر ، فقد باشر فى عالم الجراحة أعمالا لم يجرؤ أحد من قبله

على القيام بـــها ، كما استعمل أيضاً فى الخياطة الداخلية لأول مرة نوعاً لا يحتاج إلى نزعه ، بل يتآكل كيماوياً داخل الجسم . كما أحيطت شخصية الكيميائى الطبيب جابر بن حيان فى القرون الوسطى بـــهالة من القصص العجيبة ، التى تتعلق بتجاربه فى الكيمياء فى خامات الأحجار الكريمة وصبغ الجلود ، والنسيج ، وطلاء المعادن ....و..و...إلخ . والحق أن العرب توصلوا إلى أن التجربة هى أساس البحث ، وذلك هو ركيزة العلم الحديث.[1]

لم تكن هناك محظورات دينية تحرم على المسلم أن يخوض فى أى مجال من مجالات العلوم، ولم تصدر قرارات كهنوتية تمنع المسلم من البحث والإبداع والابتكار ، بل إن ماكان منها مخالفاً لتصور دينى ، أو لرأى من آراء " رجال الدين " كان يناقش ـ فى الغالب الأعم ـ مناقشة علمية ، حيث يبين المتخصصون جوانب معارضة المبادئ الدينية له ، أو مخالفته للأحكام الفقهية . مناقشات علمية بين علماء الدين والمبدعين ، دون إصدار فرمانات تصادر الفكر ، أو تحرمه بقوة السلطان ، بل مناقشة بالحجة والدليل ، ومعارضة بالعقل والمنطق، مصحوباً ببيان ماهو صالح للفرد والمجتمع ، وماهو مناف للعقيدة ومهدد لسلامة المجتمع وأمنه، وغالباً ماتكون الغلبة للجانب العلمى ، إذا كان غير مخالف لنص مقطوع الدلالة ، أو منافياً لرأى دون آخر.

---

(١) راجع : الإسلام فى الفكر الأوربى ص ١٣٣ وما بعدها

هل يتصور أحد أن ديناً هذا شأنه يدعو فى خطابه إلى اللامبالاة ، أو يقر الكسل والبعد عن العمل ؟

لا.... إلا إذا كان القائمون على الدعوة قد انحرفوا عن الطريق الصحيح ، وفى هذه الحالة لن تكون المطالبة بتطوير هذا الخطاب تعبيراً صحيحاً، بل الصحيح العمل على تصحيحه لا تطويره ، أى تصحيح مساره ؛ وذلك بإرجاعه إلى ما رسمه الله ﷻ فى كتابه العزيز ، وما عبر عنه رسوله ﷺ فيما صحت الرواية عنه .

التصحيح....ثم التصحيح ... ثم التصحيح .... لا التطوير

وذلك بإعداد الدعاة إعداداً صحيحاً ، بحيث يمكنهم الالتزام بمنهج الإسلام فى الدعوة ، وبأسلوب القرآن الكريم فى مخاطبة المسلمين وغير المسلمين ، والالتزام بالمبادئ الإسلامية فيما يعرضه الداعية ـ فى خطبه ، وأحاديثه ، وفتاواه ـ على الناس ، فلا إغراق فى الأساطير والخرافات ، ولا غلو فى ممارسة العبادات (صلاة ، وصوم ، وزكاة ، وحج وغيرها مما نص عليه القرآن الكريم من الفروض والسنن وما بينته وفصلته السنة النبوية الشريفة) ، ولا تحقير للعمل الدنيوى ، ولا تنفير من السعى فى ملكوت الله ، بل اعتدال فى كل مايمارسه المسلم من تأدية العبادات ، والسعى على الرزق، والاجتهاد فى إعمار الأرض ، وبذل كل مالدى المسلم من طاقات فى المجالات التى تساعد على بناء حضارة إنسانية، يتمتع بمنتجاتـــها ، وتكون حصناً له وأمناً من اعتداءات كل من يريد به وبدينه سوءاً .

***

ما المقصود من التطوير ؟

التطوير فى اللغة :

طوَّر الشىءَ : نقله من حال إلى آخر ، والأطوار : الحالات المختلفة، يقول الله تعالى: ﴿ **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً** ﴾ (نوح: ١٤)، أى تارات : خلقكم أولا تراباً ، ثم خلقكم نطفاً ، ثم خلقكم علقاً، ثم خلقكم مضغاً ، ثم خلقكم عظاماً ولحماً ، ثم أنشأكم خلقاً آخر . ومما لاشك فيه أن كل طور يختلف عن الآخر مادةً وشكلاً وتكويناً ، **فإذا قلنا تطوير الخطاب الدينى ، فلا يخرج المعنى عن رسم نوع آخر من الخطاب مخالف لما رسمه القرآن الكريم !!!**

أما التجديد: ففعله جدَّدَ الشىء أى جعله جديداً ، والجديد مقابل القديم ، أى أن الجديد حل محل القديم ، **فهل هناك خطاب جديد يحل محل القديم الذى رسمه القرآن الكريم ؟؟؟**

ماهو السبب الحقيقى لظهور هذا المصطلح فى محيطنا الثقافى ؟

سبب ظهور هذا المصطلح على الساحة الثقافية فى العصر الحاضر ، هو دعوة أمريكا العالم الإسلامى إلى تغيير المناهج الدينية فى المدارس والجامعات الإسلامية ؛ لأنـــها ترى أن المناهج الحالية

تدعو إلى التطرف والإرهاب، ولم تكن الدعوة عامة، بل حددتـــها بحذف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحث المسلم على الجهاد والدفاع عن دينه ووطنه ... حتى أنها طلبت حذف الآيات التى تتناول موقف الإسلام من اليهود والتركيز على ما يدعو إلى التسامح والتآخى بين البشر وقبول الآخر .

تجاوب المسلمون فى جميع أرجاء العالم الإسلامى مع هذه الدعوة ، فانعقدت المؤتمرات ، ونشرت المقالات ، وأخرجت المطابع كتباً تعالج هذا الموضوع ، بعضها أيد هذه الدعوة ، بل وسع من دائرتـــها ، فانطلق ينقد المسلمات والأسس التى يقوم عليها الفكر الإسلامى ، ويدعو إلى حرية الفكر دون حدود ، حتى ولو تجرأ الكاتب على النصوص المقدسة ؛ فالحديث عن وجود مناطق فكرية آمنة ـ هكذا يقول دعاة الحرية المطلقة ـ بمعزل عن التساؤل والنقد والنقاش الحر، هو مقدمة للحجر على العقول، وممارسة سلطة رقابية لاوجود لها فى تاريخ الفكر الإسلامي!!! وحين وجدت كان هذا إيذاناً ببداية النهاية، ودخول عصر الجمود والانحطاط فى كل المجالات، لا فى مجال الخطاب الدينى وحده . ألا يؤكد هذا أن الخطاب الدينى فى الماضى ـ كما فى الحاضر جزء لايتجزأ من نسق الخطاب العام؟ يجب إذن أن تتسع دعوة التجديد لتشمل كل مجالات الفكر والإبداع، وأن تتسم بقدر هائل من التسامح مع بعض النتوءات، بل ومن بعض مايمكن تصور أنه شذوذ وخروج على الإجماع. إن الحرية هى وحدها التى تحمى نفسها، وتحمى المجتمع من التآكل ومن التستر على أى فساد

يحتمى بمقولات زائفة عن الحفاظ على الهوية وحماية القيم ...إلخ ، ذلك أن مجتمعات الثقة ، وعمادها الحرية الفكرية قادرة على التحصن ضد التجمد والتحلل فى وقت واحد. إن خرج الإجماع فى أى مجال يكون عادة بداية لتأسيس إجماع جديد ... [1]

هذه دعوة صريحة إلى إطلاق الحرية دون قيود، ونقد كل ماهو قائم، حتى وإن طال النصوص المقدسة، فهو يدعو إلى الخروج على الإجماع دون أن يحدد مجال هذا الإجماع ، مما يوحى بأن الإجماع على صحة نصوص القرآن الكريم وأنه وحى من الله داخل تحت هذا الذى يريد نقضه وإحلال إجماع آخر مكانه . نحن لاندعو إلى التقليد ، واتباع ماكان عليه الآباء ، بل نحث على حرية الفكر، ولكن هناك قيود ومسلمات ، كما هو الشأن فى كل المجتمعات الإنسانية ، قديمها وحديثها ، بدائيها ومتحضرها ...... حتى المجتمعات التى بلغت الذروة فى التقدم والحضارة ، واحتضنت دعوة حرية الفكر ودعت إليها ... لم تكن هذه الحرية ـ ولن تكون ـ بدون قيود ، وليست خالية من المناطق المحظور تناولها أو الحديث عنها . وعليه فالمجتمع الإسلامى لديه مناطق لايجوز للعقل دخولها ؛ فهى من المسلمات التى لاتقبل النقاش ، أو النقد ، وهى فى الوقت نفسه لاتمثل عائقاً للتقدم ، أو قيداً على الإبداع ؛ فهى لاتخرج عن ثلاث مسلمات ، وهى :

---

(١) نصر أبو زيد : الأهرام ٢٠٠٤/٢/٢٤م.

أ- القرآن الكريم .

ب-السنة العملية والأحاديث المتواترة .

ج- شخصية الرسول ﷺ .

فنص القرآن الكريم مسلم به ، وللعقل مجال واسع فى تفسيره، وتأويله، وتحليله. ومن هنا كثرت الآراء ، وتعددت الأحكام. وليست هذه الكثرة فى الآراء حول المسألة الواحدة ظاهرة سلبية ، بل هى إيجابية ؛ إذ هى تفسح المجال أمام تعدد أساليب الحياة ليأخذ كل فرد مايناسب وضعه ، ويختار كل شعب مايتفق مع بيئته وعصره ، ويفتح الباب واسعاً أمام التفسيرات والتأويلات المعاصرة مادام ذلك لايخرج عن مفهوم اللغة ، ولايصطدم مع مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية ، أو يتنافى مع الأسس التى تقوم عليها حياة الأمم والأفراد . فساحة العقل فيما يتعلق بنصوص القرآن الكريم هى التفسير والتأويل والتحليل فقط ، ولايجوز له أن يعترض على النص ، أو يغير حكماً قطعى الدلالة ، والنصوص المقطوع بدلالتها قليلة جداً لاتكاد تعد على أصابع اليد الواحدة . إذن فالمجال واسع جداً للعقل فى هذه المساحة . وكذلك الحال بالنسبة للسنة العملية والأحاديث المتواترة. أما شخص الرسول ﷺ فهى مصونة لايجوز لأحد أن يتناولها بالنقد أو التجريح، ولايسمح لأحد مهما بلغت درجته العلمية أن ينقد الرسول ﷺ ، أو يجرحه، أو يشكك فيما بلغه عن ربه ، أو يعترض على سلوك روى عنه بالدليل القطعى ، فهو من المناطق المحرم على عقل المسلم

دخولها ، أو الادعاء أن له فيها مجال بحجة حرية التفكير ، لأن لكل أمة محرمات لايجوز الاقتراب منها، ومجالات لايجوز خضوعها للبحث "العلمى" ، وذلك أمر مسلم به قديماً وحديثاً ، ومقبول من كل الاتجاهات الفكرية ... حتى المتطرفة منها ، الداعية إلى إخضاع كل مافى الوجود للتفكير العقلى ، فكل من عنده ذرة تفكير ، يعلم جيداً أن الحرية المطلقة لم .. ولن توجد على وجه الأرض .

أفصح السفير عبدالله الأشعل فى كلمته التى ألقاها فى الندوة التى عقدت فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لبحث "**تطوير وتجديد الخطاب الدينى**" عن الهدف من وراء دعوة الولايات المتحدة الأمريكية إلى تعديل المناهج الدراسية فى المدارس والجامعات الإسلامية فقال : "أتناول مسألة الخطاب الدينى من وجه آخر فلسنا بصدد تقويم الدعوة الإسلامية أو إصلاح الدعاة ولكن المسألة لها بعد سياسى . ولاشك أن الولايات المتحدة والغرب عموماً أرادوا اليوم القيام بهجمة جديدة ، وهذه الهجمة تطال الدين والدنيا معاً ، وأما الدنيا فقد أخضعوها لكل صنوف الإخضاع ، وأخضعوا الشعوب والحكام وغيرهم ، ثم يطالون الدعوة ذاتـــها والعقيدة نفسها .

"ولذلك أعتقد أن هذه الندوة يجب أن تدافع عن العقيدة الإسلامية فى مواجهة هذه الهجمة ، لأن المسألة ليست مسألة داعية هنا أو هناك ، فهذه مسألة يمكن أن نقوم بـــها ، لأن إصلاح الخطاب الدينى فى جانبه الدينى أو العقيدى لايجوز أن

يقتصر على منع الداعية حين يخطب على المنبر من أن يدعو على الولايات المتحدة وإسرائيل والصهيونية .

"إن ما أخشاه هو هذا التدرج فى مواجهة الإسلام الذى تقوم به الولايات المتحدة ، فالموضوع بدأ أولاً بالتلويح ، ثم وصل إلى حد أن "فريدمان" كتب مقالاً فى ١٢ ديسمبر ، وقال فيه لوزير الشئون الدينية السعودى : إن الثقافة الإسلامية والطقوس الإسلامية بوضعها الحالى أنتجت آثاراً سيئة ، وهى التى أفرخت إرهابيين ، وأن عدداً كبيراً من الذين شاركوا فى أحداث ١١ سبتمبر هم من السعوديين ، ومن ثم فإن المسألة تحتاج منك ياوزير الشئون الدينية إلى وقفة . نحن نخاطبك الآن ، ليس بوصفك تنتمى إلى دولة بـــها محطة بترول كبيرة ، كما نراها وننظر إليها ، وإنما نخاطبك لأن السعودية أصبحت لها وظيفة أخرى غير ضخ البترول، وهى أن تفرخ الإرهاب ! "

" هذا الخطاب الصهيونى الذى يتلامس ويتداخل مع الجهد الأمريكى ـ وإن إسرائيل فى الركاب الأمريكى يومياً وفى جميع المجالات ـ هو هجمة سياسية فى المقام الأول ، وهذا الإطار العام أخطر من مجرد البحث عن إصلاح الخطاب الدينى أو الثقافى بشكل عام فى مصر .

" وأتصور أن تركز الندوة على الآتى فى توصياتـــها :

أولاً : إن التركيز على الجانب الداخلى المتمثل فى الخطاب الدينى مهم جداً، ولكن يجب ألا يكون ذلك امتثالاً لأوامر من جهات مختلفة ....

ثانياً : هناك كثير من التيارات التى لاتواكب العصر فى الجامعات ...... وهذه أزمة مجتمعية عامة ......

ثالثاً : إن ماأخشاه أن هذه البداية سوف تتبعها خطوات أخرى ، فهم يطالبوننا بإصلاح الدعاة وبإصلاح الخطاب الدينى ، ثم سوف يطالبوننا بعد ذلك بإصلاح العقيدة وبإصلاح المصادر الحقيقية للعقيدة ذاتـــها.......

رابعاً : إن المسألة خطيرة ، ومايراد لنا وبنا أوسع من مجرد إعداد الداعية، أو إصلاح الخطاب الدينى ، فهى تمثل هجمة عالمية، فالشمال يريد أن ينقض مرة أخرى على الجنوب ...[1]

إن "فريدمان" عبر عن المخطط المرسوم للدول الإسلامية ، والتى أفصحت عنه تصريحات السياسيين الغربيين فى مناسبات مختلفة . ورداً على هذه التصريحات ـ أو تجاوباً غير مباشر لها ـ عقدت مؤتمرات وندوات لبحث موضوع الخطاب الدينى ، وكان ذلك تجاوباً مع خطاب السيد رئيس جمهورية مصر العربية فى الاحتفال بليلة القدر لسنة ١٤٢٢هـــ ، والذى دعا فيه إلى تطوير الخطاب الدينى ؛ ففى ندوة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية قال أ. د/ محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف بجمهورية مصر العربية فى افتتاح هذه الندوة : "أود فى البداية أن أرحب بحضراتكم ، وأعبر لكم عن خالص شكرى وتقديرى على تفضلكم بالاستجابة لدعوة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية للمشاركة فى هذه الندوة

(١) تجديد الخطاب الدينى ، لماذا وكيف؟سلسلة قضايا إسلامية، العدد ٨٤ ص ١٢٣ وما بعدها .

العلمية المباركة ـ إن شاء الله ـ ، وهى ندوة فى غاية الأهمية ، لأنــها تتعلق بموضوع الخطاب الإسلامى المعاصر ، وما له من تأثير كبير على الرأى العام وصياغة تصوراته حول قضايا الإسلام والمسلمين .

" ومن منطلق هذه الأهمية البالغة كانت **دعوة السيد رئيس الجمهورية إلى ضرورة تطوير الخطاب الدينى ، وتجاوباً مع هذه الدعوة تأتى هذه الدعوة لتناقش الموضوع من جميع جوانبه ،** ونأمل أن تتمخض المناقشات عن رؤى جديدة ومقترحات علمية مفيدة ، يمكن تضمينها فى برامج تدريب الدعاة ، وفى المطبوعات العديدة التى تقوم الوزارة بتوزيعها عليهم ." (١)

ثم توالت كلمات المشتركين فى الندوة ، فقال شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى : "...و نحن نسعى إلى أن تكون خطبة الجمعة والخطاب الدينى بوجه عام تمتاز بالوضوح وسرد الحقائق بأسلوب **يقنع العقول والمشاعر الإنسانية** ، وأن يكون هذا الخطاب **يرعى مقتضى الحال ومناسبة الظروف** ، وأن يكون الحديث وفق الظروف التى توجب علينا أن نتحدث بشكلها فى ضوء الأصول التى جاءت بـــها شريعة الإسلام المتمثلة فى كتاب الله عز وجل والسنة النبوية الصحيحة .... " (٢)

وقال الأستاذ الدكتور أحمد أبو المجد : " ..... الخطر الأول: أننا نواجه قبل هذا الحدث ـ يقصد : ٩/١١ /٢٠٠١م ـ ومعه

(١) المصدر السابق ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠ .

محاولة للهيمنة الثقافية ، بمعنى أن قوة أتيح لها من القوة العسكرية والتمكين السياسى والاقتصادى ما يصور لها أن حضارتـــها هى الحضارة الأعلى، وأن لها حق التدخل فى ثقافة الآخرين، وتعليمهم مفردات خطابـــهم السياسى والثقافى والإعلامى والدينى على أساس أنـــهم بناة هذه الحضارة التى استقوت على العالم ، وأنـــها لأفضل الحضارات، وأن على الآخرين أن يسمعوا ويطيعوا ...... بعد ذلك .. ينبغى أن نتساءل .. ماذا نقصد بالخطاب الدينى ؟ لأن كلاماً كثيراً فى الثقافة العربية والإسلامية مد البحث فى الخطاب الدينى إلى **نصوص القرآن والسنة** ، وهذه قضية غير مطروحة أمامنا ، ولنا على هذا المسلك تحفظ كبير نحن معنيون بأمر واحد محدد ، هو : أمر الخطاب الدينى الذى يصدر من العلماء والدعاة والمفتين إلى جماهير المسلمين ، ثم الذى يصدر منهم بعد ذلك موجهاً إلى العالم الخارجى ، هذا هو لب المسألة لا نخلطه بشيء غيره ....." [(١)]

وقال السيد ياسين : "هناك فى الخطاب الإسلامى المعاصر إدانة للحضارة الغربية ، وأوصاف سلبية للمجتمعات الغربية وكأنـــها مجتمعات كافرة وملحدة ومنحلة أخلاقياً ، وليس هذا صحيحاً . الحضارة الغربية نحن من صناعها ، ولو لم تكن الحضارة الإسلامية فى عهدها الزاهر ما كانت الحضارة ، وليدرس من شاء ما حدث فى الأندلس ، وكيف كانوا يبعثون بالرسل لتعلم اللغة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩ ، ٣٢ .

العربية،ونقل المخطوطات العربية وترجمتها إلى اللاتينية ، فالحضارة الغربية الحديثة بمنهجها العلمى أخذت من الحضارة الإسلامية ، وبالتالى الحضارة الغربية حضارة إنسانية ، من حقنا أن نأخذ منها، ومن حقنا أن نرفض ، بشرط إعمال العقل النقدى . نحن إذاً أمام مشكلة تتعلق بفهم المجتمع المصرى ، وليس الإسلاميين فقط ، أو الدعاة فى فهمهم لطبيعة المتغيرات العالمية .

"لابد أن نتبع منهجاً نقدياً ولا نخشى من العولمة ولا نبالغ فى آثارها ولن ننقدها ، بحيث نفهم قوانينها الحاكمة ، الفهم قبل التقييم ، هذا هو الشعار الذى نرفعه فى مواجهة هؤلاء المتعجلين الذين يقبلون العولمة بدون شروط ، أم يرفضونـــها على إطلاقها ، **الفهم قبل التقييم** .....

"وقد تغير المجتمع المصرى عبر الزمن ، وبالتالى تغيرت مكونات الخصوصية الثقافية ، واليوم عندنا مثلا فى مصر تعليم البنات ، والمرأة خرجت للعمل ، ومنهن سفيرات وأستاذات ، فلا يأتى اليوم من يفتى ويقول : هل صوت المرأة عورة أم لا ؟ هذا عبث ، ولا يجوز تضييع وقت الأمة فى هذا .

" فالأستاذة فى الكلية تدرس لآلاف الطلبة والطالبات ، ثم يأتى من يقول : إن صوت المرأة عورة أم لا!!! هذا عبث وتضييع لوقت الأمة ، وهناك فتاوى عديدة يندهش لها الإنسان ، كأن يسأل شخص جاهل أسئلة تافهة ، ويضيع وقت من يفتيه ..." [1].

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣وما بعدها .

وأبدى السفير نبيل بدر ملاحظات على الخطاب الإسلامى كما ورد فى أدبيات غربية ، وهى :

- تفاوت الرؤى والتطبيقات لمفاهيم إسلامية .
- التناقض فى لغة الخطاب الإسلامى ، وكراهية عامة للغرب لعدة أسباب عممت بحيث ألصق بـــها أيضاً معاداة المسيحية بصفة خاصة ، فضلا عن معاداة الديانات والعقائد الأخرى عموماً ، وزرع النفور أو رفض التعايش معها .
- تصور أن التضامن الإسلامى يعنى معاداة كل ما هو غير مسلم ، والتناقض بين القول بغير ذلك ـ كما هو فى صحيح الإسلام ـ وسلوكيات أو مواقف عملية أخرى .
- يؤخذ عليهم الاحتفاء بمظاهر التدين بعيداً عن الأبعاد السلوكية والحضارة الإسلامية ، واتساع الفجوة بين القول والعمل.
- الاضطراب فى معالجة المفاهيم الإسلامية تبعاً للمصادر التى يرد منها ، واختلاط ذلك بالعادات والتقاليد الاجتماعية السائدة فى مجتمعات إسلامية بصرف النظر عن ضرورتـــها ، أو انتسابـــها لصحيح الإسلام .
- إن الإسلام كحضارة وثقافة فى إطار الفهم المتكامل للدين لم يحسن عرضه ، ووضعت حواجز بين ما صور على أنه ممارسة إسلامية صحيحة وبين ما هو فنون وآداب مشروعة .
- متابعة لآراء الفقهاء أحياناً مع عدم توافر الاجتهاد المناسب فى قضاياها ، وترديد الآراء والأساليب النمطية فى تناول قضايا حيوية مثل : الديمقراطية ، وضع المرأة ، حرية الفكر ،

القبول بالآخر ، وإمكان التعامل معه ، والترحيب بما هو مشترك .. مما أدى إلى ثقافة محدودة، قد تبث الانعزالية وتعمق التناقضات، بما يضيف لمشاكل التخلف التى تعانى منها أكثر المجتمعات الإسلامية .

● عدم تحديد الأسبقيات وترتيبـــها تبعاً لأهميتها فى قضايا الدعوة .

● أسلوب تناول هذه القضايا بين الدعاة ، كما لو كان المسلمون هم المحور الوحيد فى هذا العالم ، وعدم تكامل العرض لبعض القضايا ، وعرضها باعتبارها فقط قضايا بين مسلمين وغير مسلمين ، وعزلها عن مجريات الأحداث والواقع .

● الوضع الحالى يتيح استغلال هذا المناخ لزيادة المشاكل والفرقة بين المسلمين وغيرهم ، وإيجاد قاعدة للتحالف والعمل ضدهم بدلا من تقييد ذلك .

"........نأتى إلى تعقيب على ما ورد بالنسبة للفتاوى ، وأتصور أنه يرد فى خضم موضوع الفتاوى قدر من الضبابية ، هذه الضبابية ربما تكون لعدم كفاية التناول كلياً وتفصيلياً للقضايا الملحة ـ بما فى ذلك قضايا المغتربين فى الخارج ـ والحيوية على نحو متكامل وسليم ، وقد تكون ركوناً إلى الأسلم ، أو الأخذ بالأحوط . إنما نحن فى زمن كثرت فيه القضايا ، ويتعين أن نواجهها مواجهة واضحة وصريحة ، كقضايا الديمقراطية ، وقضايا المرأة ، وقضايا حرية الرأى ، وقضايا موقع الفنون من الحياة

الإنسانية ... إلى آخر ذلك . أين موقفنا ؟ وكيف يمكن أن نحدده بحيث تزول فجوات الازدواجية فى الشخصية الإسلامية ، وتقف على أرض سليمة جديرة بالخطاب الدينى ؟ " [1]

ومن اللافت للنظر أن المتحدثين فى هذه الندوة ، أو الذين أسهموا فى هذه القضية بمقالاتهم الصحفية ، وتحقيقاتهم المنشورة فى وسائل الإعلام لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث فى هذه المشكلة :

- أسبابها ، وأهدافها .
- جوانب القصور فى الخطاب الدينى ، وأسباب هذا القصور ، سواء فى المناهج الدراسية ، أو فى تأهيل الدعاة .
- طبيعة الفكر الإسلامي: مذاهبه، مدارسه، تياراته الفكرية.
- تعدد الآراء فى المسألة الواحدة ، والعلاقة بين هذه الآراء وبعضها ، وكذلك بينها وبين النصوص المقدسة ، ومتى يعتبر الرأى خروجاً على الإسلام ، ومتى يوضع داخل الإطار الإسلامى، حتى وإن خالف رأى الجمهور ، ومناقضاً لما يعتنقه الأكثرية ، ويتعامل على أساسه غالبية المسلمين ، سواء كان ذلك فى العبادات أو فى المعاملات والأخلاق .

لم أر بحثاً تناول هذه المسائل ، أو ركز على بعضها ، وإنما هو كلام مرسل ، لم أفهم منه إلا :

---

(١) المصدر السابق ص ٧٢ وما بعدها .

- ترديد كلمة " تطوير " الخطاب الدينى ، وأحياناً يعبر عنها بتجديد بدل تطوير .
- العودة إلى الاستعانة بعلوم العصر واستخدام التكنولوجيا فى مجال الدعوة .
- إضافة بعض العلوم العصرية إلى منهج الدراسة.
- عقد دورات تدريبية للدعاة ، دون بيان مضمون هذا التدريب ، وكيفيته .
- عرض عام وسريع فى كلمات مرسلة لضعف المؤسسات الدينية ووصف مختصر لضعف الخطاب الدينى .
- الدعوة إلى تقوية المؤسسات الدينية ، دون بيان السبيل إلى ذلك .
- بيان أن الإسلام يدعو إلى استعمال العقل ، دون توضيح مجالاته .

هذا هو بعض ما فهمته من الحديث عن تطوير الخطاب الدينى، سواء ما ألقى فى الندوات والمؤتمرات، أو ما نشر فى الصحف والمجلات ، وعلى صفحات وسائل التكنولوجيا المعاصرة، أو بث فى الإذاعات المرئية والمسموعة .

***

ولكى نعالج الموضوع معالجة منهجية وشاملة، ينبغى أن نتناول نقاطاً عامة تتصل بالموضوع اتصالا مباشراً بالبحث والبيان نوجزها فيما يلى :

أولا : بيان الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامى

فالإسلام هو : نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية التى أجمع المسلمون بجميع مذاهبـــهم ومدارسهم الفكرية على صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ. أما الفكر الإسلامى فهو" المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الإسلام من مصادره الأصلية : القرآن ، والسنة الصحيحة :

١ـ إما تفقهاً واستنباطاً لأحكام دينية فى صلة الإنسان بخالقه فى العبادة ، أو فى صلة الإنسان بالإنسان فى المعاملات، أو لمعالجة أحداث جدت، لم تعرف بذاتــها فى تاريخ الجماعة الإسلامية ـ على عهد الرسول ﷺ وعهد صحابته ـ أو تبريراً لتصرفات خاصة صدرت وتمت ، أو تصدر تحت تأثير عوامل أخرى .

٢ـ وإما توفيقاً بين مبادئ الدين وتعاليمه من جانب ، وفكر أجنبية دخلت الجماعة الإسلامية من جانب آخر ، بعد أن قُبِلَت هذه الفكر كمصدر آخر للتوجيه .

٣ـ أو دفاعاً عن العقائد التى وردت فيه ، أو ردًّا لعقائد أخرى مناوئة لها ، حاولت أن تحتل منــزلة فى الحياة الإسلامية العامة لسبب أو لآخر."[1]

---

(١) محمد البهى : الفكر الإسلامى فى تطوره ص ٧.

أى أن الفكر الإسلامى هو جميع ما أنتجه المسلمون حول المصدرين : القرآن الكريم والسنة النبوية من :

- تفسير للقرآن الكريم .
- شرح الأحاديث النبوية وبيان درجتها .
- الأحكام الفقهية .
- كل ما كتبه المسلمون فى مجال الدراسات الإسلامية .

ويعبر عن هذا كله بـــ : " التراث " . فالتراث ليس هو الإسلام ، وإنما هو إنتاج العقل البشرى، طبقاً لما فهمه من نصوص قرآنية غير قطعية الدلالة .

يتضمن التراث آراء المفسرين والفقهاء فى تفسير النصوص القرآنية وهى كثيرة ومتعددة، بحيث يصعب على المرء ـ إن لم يكن مستحيلا ـ أن يجمع بينها . وقد تقبلها المسلمون ، وعاشوا بـــها، على أساس أن للمسلم أن يختار منها ما يتناسب مع ظروفه وأحوال معيشته ، ويطمئن إليه قلبه ، ويرتاح به ضميره ، دون أن يرمى من يختار الرأى الآخر بالكفر ، أو يصفه بالفسوق ، وذلك استناداً إلى قول رسول الله ﷺ " .. **استفت قلبك وإن أفتوك** ..."، فالقلب هو الذى يفضل رأياً على آخر ـ لو تساوى الرأيان فى أدلتـــهما ، أو لو كان المرء من غير المجتهدين ـ ، ويختاره ويلتزم به فى سلوكه وعبادته ..... حتى العلماء أنفسهم ـ أصحاب الآراء المتعددة ـ لم يجزموا جزماً قاطعاً بأن آراءهم الفقهية ـ أو تفسيرهم للآيات ـ هى الحق المطلق ؛ فقد روى عن الشافعى ﷺ أنه قال : " رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ." كما لم يتعصب أحد ـ فى الغالب الأعم ـ لرأيه مستنكراً آراء الآخرين ونافياً لها فقد روى عن أبى حنيفة قوله : " علمنا هذا رأى ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن قدر على غير ذلك ، فله ما رأى ، ولنا ما رأيناه . "

ولهذا ينبغى على العلماء والمفتين أن يراعوا الأحوال والظروف المختلفة، ويعلموا الناس بالآراء التى تعينهم على مواصلة الحياة دون عنت أو إرهاق ، حتى وإن كان العالم أو المفتى لا يميل إلى الرأى الملائم لحال السائل أو المستمع ، لأن إخضاع الناس لمذهب المفتى، أولما يميل إليه شخصياً انحراف عن المسار الصحيح للدعوة، وإجبار الناس على اعتناق مذهب دون آخر. فالتراث ثرى بالآراء المتعددة فى المسألة الواحدة ، وليس هذا جانباً سلبياً فى التشريع الإسلامى، بل هو ظاهرة إيجابية تدل على أن الإسلام دين عالمى ، لكل الناس، على اختلاف زمانهم ومناطقهم الجغرافية ، وتعدد أساليب حياتهم ؛ فلو كانت الآيات القرآنية "كلها" قطعية الدلالة [1] لكان الإسلام ديناً محلياً يناسب المجتمع الذى تلائم الأحكام القطعية أسلوب حياته وزمانه دون غيرها من المجتمعات الإنسانية . [2]

---

(١) فى القرآن الكريم آيات قطعية الدلالة ، لكنها قليلة جداً لا تكاد تعد على أصابع اليد الواحدة .

(٢) لم يصل كثير من المتحدثين باسم الإسلام فى هذا العصر إلى درجة من الثقافة والمعرفة تمكنهم من فهم واقع المجتمعات الإنسانية المعاصرة ، أو التفريق بين ما يتحتم الأخذ به فى الظروف الراهنة ، وما ينبغى رفضه ، فلا يجوز السماح بوجوده فى المجتمعات الإسلامية ، بأى حال من الأحوال ، مما دفعهم إلى رفض كل ما يتعلق بالحضارة الحديثة ، حتى ولو لم يكن له تأثير سلبى على الجانب الدينى ؛ أنكروا التعامل مع كل مظهر حضارى ، حتى وإن لم ينكره الدين أو يحرمه . وضعوا قيوداً على سلوك الناس اعتماداً على رأى فقيه ، وليس استناداً إلى نص صريح . اتسمت فتاواهم بالتضييق وتقييد حرية الناس ، على الرغم من النصوص الصريحة التى تبين أن الله لم يجعل على الناس حرجاً فى الدين ، بل هو تهذيب وتقويم فى إطار السهولة واليسر .

ولهذا يجب على الداعية أن يلم بكل ما قاله العلماء في تفسير الآية ، وبما استنبطه الفقهاء منها : من أحكام متعددة ، ثم يختار منها ما يلائم المجتمع الذى يخاطبه ، وينتقى منها ما يلائم ظروف من يستفتيه ، ولا يدخل مع العامة فى سرد الآراء المتعددة عليهم ، لأن فى ذلك تشويشاً لعقولهم فتضطرب نفوسهم ، ويهتز إيمانهم بتسرب الشك إلى قلوبهم من جراء ما يسمعونه ولا يفهمونه .

-كان هذا الموقف من بعض رجال الدين سبباً فى تمسك الداعين إلى العلمانية بموقفهم ؛ إذ أعطاهم الدليل على أن الدين لا يصلح للحياة المعاصرة التى اتسمت بسرعة المتغيرات ، وكثرة المستحدثات فى جميع المجالات ، فلا يمكن التوفيق بين التمسك بصيغ قديمة تعوق حركة التقدم، أو تقف حائلا بين المجتمع وبين الانطلاق فى طريق الرقى والحضارة . ومما دعم به هؤلاء موقفهم ما اشتهر بين المتطرفين من مواقف يعتبرها صفوة الأمة من المثقفين غير مقبولة على الإطلاق فى المجتمع المعاصر ، وخاصة فيما يتعلق بمجال السياسة والحكم . ومن أشهر هذه المواقف ما يراه بعض رجال الدين من أن الشورى التى نص القرآن الكريم على أنها من الصفات اللازمة للمجتمع الإسلامى غير ملزمة للحاكم ، إذ يعتبر العلمانيون هذا الموقف منافياً للديمقراطية التى تعارفت المجتمعات فى العصر الحديث على أنها الأسلوب الأمثل — على الأقل فى العصر الحاضر — فى إدارة شئون الحكم ، فإذا جاء من يجردها من مضمونها الأساسى ، ويعطل مفعولها الأصلى ، فإن من الطبيعى أن يجد معارضة قوية ، حتى ولو تدثر بثياب الإسلام ، فما بالك برأى ليس له وزن فى مجال الفقه الإسلامى ، حتى وإن تمسك به من يصف نفسه بأنه فقيه. لكن العلمانيين تلقفوا هذا الرأى ورفعوه سلاحاً يخيفون به من يفكر فى الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجال الحكم، إذ ارتفعت أصواتهم بأن هذا معناه "ديكتاتورية دينية " ، ما دام الحاكم ليس مُلزَماً برأى من يستشيرهم .

وعليه فيجب أن يتضمن برنامج إعداد الدعاة توضيح هذا الجانب وبيانه لهم، مع التأكيد على أن الداعية هو كالطبيب يصف لكل داء دواءه ، ويعطى لكل مريض ما يساعده على الشفاء ، فلا يتكلم إلا بما يصلح الناس، ولا يتناول مسألة إلا إذا ألم بكل ما قاله العلماء فيها ، ويكون حديثه ملائماً للسامعين ، متفقاً مع ثقافتـــهم ووضعهم فى المجتمع، وله فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد كان رسول الله ﷺ يخاطب كلاً على قدر ما يفهم ، ويوجه السامعين حسب ظروفهم وأحوالهم ؛ فقد ورد أن رجلا يدعى الحصين ، كان ذا مكانة بين قريش ، أرسلوه يوماً إلى رسول الله ﷺ ليكلمه حتى ينتهى من دعوته ، فلما جاء إلى النبى ﷺ قال : أوسعوا للشيخ ! فقال الحصين : ما هذا الذى بلغنا عنك، أنت تشتم آلهتنا وتذكرها؟ ، فقال رسول الله ﷺ : يا حصين، كم تعبد من إله؟ ، قال : سبعة فى الأرض وواحد فى السماء ، فقال رسول الله ﷺ : فإذا أصابك الضر، لمن تدعو؟ قال: الذى فى السماء ، قال رسول الله ﷺ : فإذا هلك المال ، من تدعو؟ ، قال: الذى فى السماء ، قال رسول الله ﷺ : فيستجيب لك وحده ، وتشرك معه؟ أسلم تسلم ... فأسلم الحصين ...

فإذا فهم الداعية أن فى التراث آراء متعددة ، وأنـــها كلها ، يمكن أن يختار منها ما يصلح للناس ، كل حسب ظروفه وأحواله، وأن هذه الظاهرة إيجابية فى الإسلام ؛ لأنـــها دليل على أنه صالح لكل زمان ومكان ، وأنه ينبغى أن يبرز من الآراء ما يناسب المجتمع الذى يخاطبه ، كان ذلك خطوة مهمة على طريق تصحيح مسار الخطاب الدينى .

***

ثانياً : البعد عن الأساطير والخرافات

الأساطير : جمع أسطورة ، وهى الحديث الذى لاأصل له ، يقال : إن هذا إلا أساطير الأولين ، أى ما سُطِّرَ من أعاجيب أحاديثهم ، وقيل : الأساطير = الأباطيل ، يقال : سَطَّرَ فلانٌ علينا، يُسَطِّر : إذا جاءنا بأحاديث تشبه الباطل .

والأساطير : قصص كانت الشعوب تحكيها قديماً فى بعض المناسبات ، وتعتقد أنــها قصص حقيقية ، تروى وقائع وأحداث حصلت بالفعل فى يوم من الأيام الماضية ، وهناك فئات من الناس فى سائر أنحاء العالم مازالت إلى يومنا هذا تحكى هذه القصص فى بعض المناسبات، وتعتقد أنــها قصص تروى وقائع حصلت بالفعل فى الماضى، على الرغم من أنــها لا أصل لها ، فهى من الأباطيل .

والخرافات الشعبية هى قصص وحكايات تعودت النساء فى سائر أنحاء العالم أن يحكينها للأطفال فى السمر والليل ، وقد يحفظ الأطفال عنهن هذه القصص فيقصونــها لبعضهم البعض .

ويتضمن التراث الإنسانى كثيراً من هذه الأساطير والخرافات [١]، وهى تحكى ـ غالباً ـ فى المناسبات والتجمعات ، ويستحسنها كثير من الناس لغرابتها وأحداثها المشوقة، وقد وردت فى الفكر الدينى واحتلت مساحة واسعة فيه ، لأن المبشرين والدعاة لجأوا إليها

---

(١) راجع : دراسات فى الأساطير والمعتقدات الغيبية لـــ : صالح بن حمادى .

للتأثير على مشاعر العامة ، وتوجيههم إلى القيم والمبادئ التى يدعون إليها ، غير أن بعض رجال الدين الذين لم يفهموا الغرض الذى من أجله دخلت هذه الأساطير والخرافات إلى الفكر الدينى ، حدثوا الناس بـهذه الأساطير على أنـها جزء من الدين ، وأنـها من خوارق العادات الملحقة بمعجزات الأنبياء والرسل، فترتب على ذلك تغييب العقل ، والميل إلى تصديق هذه الخرافات، وقبولها على أنـها حقيقة وقعت بالفعل، فتنكروا للتفكير العلمى، وأهملوا الأخذ بالأسباب ، متوقعين أن يحدث لهم مثل ما حدث فى هذه الأساطير، لإخراجهم مما هم فيه من أزمات وكوارث .

دخلت هذه الأساطير والخرافات الفكر الإسلامى ، واحتلت مساحة واسعة فيه ، لدرجة أن من ينشرونـها فى المجتمع يلبسون ثوب الدعاة ، ويدعون أنـهم يعتمدون فى نشر أفكارهم على القرآن الكريم [1] فانتشرت الخرافات فى المجتمعات الإسلامية [2]، وخاصة فى وقت الأزمات . هذه المعتقدات تظهر فى القرن الواحد والعشرين ، ويؤمن بـها كثير من المسلمين ، ليس فقط محدودو

(١) يحتوى كل دين على قصص وحكايات خرافية ، لأن نسبة كبيرة فى المجتمعات الإنسانية غير مؤهلة علمياً لفهم القيم الدينية مجردة ، فكان من الضرورى أن توضع فى قصة لتقريب مضمونـها للعامة من الناس ، وجاءت هـذه القصص فى الأديان كلها بصورة لا يمكن تأويلها علمياً ، أما الإسلام فما جاء فيه متعلقاً بـهذا الباب، يمكن للعامة أن يفهموه على نحو أسطورى، كما يستطيع المفكر - فيلسوفاً كان أو فيزيائياً أو اجتماعياً ....أو ... أو...إلخ - أن يفسرها طبقاً للمفاهيم العلمية .

(٢) كتحضير الأرواح ، ومس الجن ، و الاتصال الجنسى بين الإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وبين الجن ، والعلاج بالقرآن ، والسحر وغير ذلك من المعتقدات التى كانت شائعة لدى الشعوب البدائية .

الثقافة منهم ، بل يعتقد فى صحتها كثير من المثقفين الذين بلغوا درجة عالية فى عالم الفكر والثقافة .

كان من واجب الدعاة محاربة هذه الظاهرة الخرافية التى لا أصل لها فى الإسلام ، ولكن ـ للأسف الشديد ـ يؤمن بـــها كثير من الدعاة ، ويعملون على نشرها ، معللين ذلك بأن اشتمال الوعظ على هذا النوع من القصص يجذب الناس إليهم ، ويهيئهم لسماع التعاليم الدينية ، وهذا صحيح لو كانت الجرعة من هذه القصص محسوبة بالقدر الذى لا يؤثر على عقلية الناس ويغيبــهم عن الواقع ، ولا يغرس فى نفوسهم الكسل وعدم العمل، والبعد عن اتخاذ الأسباب فى عملهم وحياتــهم انتظاراً لمعجزة تحدث لهم كما حدثت لأبطال القصص الخرافية التى آمنوا بــها وصدقوها على أنــها حقيقة وقعت بالفعل، وليست خرافة قصد بــها من أول الأمر التسلية. وهذا أمر ينبغى على القائمين على تأهيل الدعاة مراعاته[1]، حتى يستقيم فكرهم ، فلا يستغرقون فى سرد هذا النوع من القصص المثبطة للمسلمين ، والمغيبة لعقولهم وتفكيرهم ، وبذلك يسهمون فى تصحيح الخطاب الدينى .

***

---

(١) فليس فى القرآن الكريم خرافة ، وإنما دخلــت هــذه القصــص فى الفكــر الإسلامى عن طريق تفسير القرآن الكريم والملاحم والسير وعنــد مــن تصدوا لشرح قصص القرآن الكريم ، وأوضح مثال على ذلك : قصــص القرآن للثعلبى .

ثالثاً : تأهيل الدعاة

إن أهم خطوة على طريق تصحيح الخطاب الدينى ، هى وضع منهج كامل وشامل ، يحتوى على العناصر التى تؤهل الداعية للقيام بواجبه فى مجال الدعوة الإسلامية على الوجه الأكمل فى المجتمع المعاصر ، بحيث يكون قادراً على فهم التيارات الفكرية ، ومدركاً لآفاق الآراء المتعددة داخل إطار الفكر الإسلامى ، يعرف متى ، وكيف ، وأين يعرض القيم الإسلامية ، ويشرح التعاليم والأحكام الفقهية ، ويدرك الفرق بين المناهج التى بينها القرآن الكريم ، وكيفية استخدام كل منهج طبقاً لوضع المستمعين : فكرياً ، وثقافياً ، واجتماعياً .

وتتلخص العناصر الرئيسة لهذا المنهج فيما يلى :

١- إعداد الدعاة إعداداً جيداً وذلك بـ :تطوير مناهج إعداد الدعاة فى الجامعات الإسلامية ، بحيث تشتمل على :

أ. منهج الدعوة :

ومفرداته :

١-مناهج الرسل فى الدعوة إلى الله [اختلاف المناهج بسبب التفاوت الثقافى ، والبيئى ، والزمنى للمدعوين . تنوع الأدلة بسبب نوعية المدعوين ، وتعدد أساليب معارضتهم للدعوة . .

٢- منهج القرآن الكريم :

أ- الحكمة [استخدام الأدلة العقلية مع غير المسلمين ، مع الاستشهاد بأحداث التاريخ ، ومناهج البحوث الاجتماعية والعلمية فى مجالات الكون والطبيعة والإنسان].

ب-الموعظة الحسنة [مخاطبة النفس والوجدان ، مع الاستعانة بنتائج علم النفس والأخلاق والاجتماع . شرح المبادئ والأحكام الإسلامية فى مجالات:العبادات ، والسلوك الإنسانى، والنشاط فى تعمير الأرض ، وتحسين البيئة].

ج-المجادلة بالتى هى أحسن [بالمناظرة مع المعاندين والمشككين بأسلوب عقلى مستعينا بالفلسفة والمنطق وعلم النفس .....وغيرها مما يساعد على إقناع الخصم ...شرح كيفية مواجهة من لايقتصر على المعارضة النظرية:كالجهاد بكل مامن شأنه الدفاع عن الإسلام، والصمود أمام من يعتدى على المسلمين وحرماتـــهم ومقدساتـــهم .

٢- الدعوة ووسائلها :

أ.التعريف بالدعوة :

١ ـ المضمون : [العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق].

٢ ـ الهدف : [تبليغ شرع الله للناس].

٣ ـ الغاية من التبليغ : [إقناع غير المسلمين بالإسلام ، وتثقيف المسلمين بالأمور الشرعية ، وحثهم على تنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه]

ب ـ صورها : الكلمة المنطوقة ، ومن أهم أنواعها :

١ ـ الخطبة ، المحاضرة ، الدرس .

٢ ـ الكلمة المكتوبة ، ومن أهم أنواعها : الكتاب ، المقال ، البحث، القصة ، ويدرب الطالب على كيفية ممارسة هذه الأنواع.

٣ ـ آلات وأماكن التبليغ : المسجد ، مؤسسات التعليم والتثقيف [المدرسة، الجامعة، الأندية ، الجمعيات ، المراكز العلمية والاجتماعية والثقافية] الإذاعة، التليفزيون، شبكات الاتصال الحديثة. ويدرب الطالب على تنوع الأسلوب بحسب المكان ووسيلة الاتصال مع المدعوين.

٣ ـ السلوكيات :

أ- سلوك الفرد : [النظافة والهيئة بشكل عام ، النظام ، الالتزام]

ب- وضع المجتمع : [التقدم فى جميع المجالات العلمية ، الحرص على تطبيق القيم الإنسانية :حرية الرأى والعقيدة ،حقوق الإنسان، العدل ، المساواة ، التكافل الاجتماعى، التعاون، مساعدة الضعفاء ....إلخ.

٤ ـ دراسة القضايا الفكرية المعاصرة التى لها صلة بالدعوة

مع بيان أسباب ظهورها وتداعياتـــها ، وكيفية التعامل معها ، وأساليب مواجهتها، مثل: الأصولي، التطرف، الإرهاب، التكفير والهجرة ، التعصب للرأى ، قبول الرأى الآخر ......الخ

٥ ـ رفع مستوى الدعاة فى مجال المواجهة ، وذلك: -

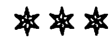
- بتبصيرهم بحقيقة ما يوجه إلى الإسلام من تـــهم ، وكيفية الرد عليها .
- بيان أبعاد الهيمنة الثقافية المتخفية وراء العولمة، وكيفية مواجهتها والتعامل معها .
- توضيح العلاقة بين العلم ـ وما ينتجه من نظريات ومستحدثات - وبين الدين .
- إلقاء الضوء على العلاقة بين النص والعقل ، وموقف الإسلام من الحضارة ، مادية كانت أم معنوية .
- رفض تفسير تعاليم الإسلام طبقا لهوى المناوئين للإسلام ومصالحهم .
- التركيز فى الدعوة على : السماحة ، التيسير ، احترام الآخر ، تقديم الأهم على المهم ، تقديم الأصول على الفروع ، البعد عن الخرافات ، عدم الانفصال عن الواقع ....إلخ

وعلى الأقسام العلمية توزيع هذا البرنامج على سنوات الدراسة فى المرحلة الجامعية ، مع إضافة التفصيلات والتفريعات إن لزم الأمر .

٦ ـ نوعية الدعاة :

التدقيق فى اختيار الطلاب الذين سيؤهلون للقيام بالدعوة ، وذلك باختيار الممتازين دراسياً ، والذين يتمتعون بالخلق الطيب ، والهيئة الحسنة المؤثرة فى نفوس المدعوِّين ، والموهبة فى الصوت ، والذكاء ، وحسن التصرف فى المواجهة مع الجماهير .

ويمكن جذب من يتمتع بـــهذه الصفات إلى الدراسة فى الكليات المتخصصة عن طريق رصد مساعدات مالية لمن يدرس فى الكليات المتخصصة فى إعداد الدعاة ، أو تسكينهم وإعاشتـــهم من صناديق خاصة ، تُمَوَّل من أموال الزكاة ، أو من تبرعات ، يعلن عنها للمسلمين : أنـــها تخصص لإعداد الدعاة .



رابعاً : الحث على العلم والاجتهاد

يدعو الإسلام إلى العلم ، لأنه مفتاح التقدم والازدهار ، ويقدس حرية الإنسان كى يصون كرامته ، ويحمى إرادته ، ليصبح قادراً على توظيف علمه وثقافته لخدمة نفسه ومجتمعه ، فيختار ما يقتنع به ويرضى عنه ، ويبنى حياته دون ضغط أو إكراه ، ومن كان هذا شأنه :

- استقام أسلوبه فى العمل، فلاتخاذل ولا تكاسل ، ولا إهمال ولا تــهاون ، بل جد ومثابرة ، وإتقان وإبداع .
- واستوى سلوكه مع نفسه ، وحَسُن تعامله مع الآخرين ، فلا نفاق،لأن بذرة النفاق تنبت فى مجال انعدام الحرية ، وهو يتمتع بــها ، وتزدهر فى محيط الخوف والرعب ، وهو لا يخاف أحداً، إلا الله ، لأنه تسلح بالعلم ، وتحصن بالحرية فى جميع مجالات حياته، فهو حرّ فى اختيار عقيدته ، وصاحب إرادة فى سلوكه ، ويتمتع بحرية التعبير عما يميل إليه فى ظواهر المجتمع ومشكلاته .

على هذا المنهج تربى المسلمون الأول ، فكانوا من أحسن العناصر التى كونت المجتمع الإسلامى الأول ، عبروا عن آرائهم حتى ولو كان مخالفا لرأى رسول الله ﷺ فيما يتعلق بشئون الحياة؛ فقد روى أن الحباب بن منذر بن الجموح اعترض على ما ارتآه الرسول ﷺ فى منازل الجيش فى غزوة بدر، فقال: يا رسول الله ! أرأيت هذا المنــزل ، أمنــزل أنزلكه الله تعالى ، ليس لنا أن

نتقدمه ، ولا نتأخره ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فرد عليه الرسول ﷺ بأنه الرأى والحرب والمكيدة ، فقال الحباب : يا رسول الله ! هذا ليس بمنزل ، فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فتنـــزله ، ثم تغور ما وراءه من القلب ، ثم تبنى حوضاً فتملؤه ماءً ، ثم تقابل القوم ، فنشرب ولا يشربون . فاختار الرسول ﷺ ذلك المنـــزل ، وأخذ برأى الحباب بن منذر ، ونفذه كاملا .

كذلك اعترضت امرأة على فُتْيَاه ﷺ حين اشتكت إليه أن زوجها قد ظاهرها، فقال لها: قد حرمت عليه، فجادلته،وحاورته، فنـــزل قول الله تعالى : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَـــادِلُكَ فِى زَوْجِـــهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا** ﴾.
(المجادلة : ١)

كان التعبير عن الرأى بحرية معلماً من معالم المجتمع الإسلامى، وسمة من سماته الأصلية ، يشهد على ذلك ما نراه فى كتب التراث من آراء متعددة فى المسألة الواحدة ، واتجاهات تكاد تكون متعامدة فى تعاليم الإسلام وشرائعه ، ابتداءً من الأمور التى تتعلق بمصالح العباد مروراً بالعبادات...... حتى مبادئ العقيدة نفسها ، اختلف فى تفسيرها وتأويلها أكابر العلماء ومؤسسو المذاهب العقيدية والفقهية .

تقبل المجتمع هذه الظاهرة وتعامل معها بفكر وروية ، فاختار كلٌّ ما يروق له من الآراء ويطمئن إليه ، ودافع أصحاب الآراء عن آرائهم بالحجج والأسانيد، ودحض أدلة المخالفين وتأويلاتـــهم،

دون أن يُكَفِّرَ أحَدٌ الآخَرَ ـ إلا ما ندر ـ ؛ إذ كان الطابع العام هو مناقشة الحجة بالحجة ، ودعم الرأى بالأسانيد والأدلة ، ومن خرج عن ذلك إلى الطعن والتكفير ، طواه التاريخ، وأهملته ذاكرة الأمة ، فلم يترسب فى ذاكرتـــها إلا من أسس مذهبه على أدلة واضحة ، وتحاور مع الآخرين باحترام وأدب ، وسادت مناقشة العلماء المقولة الشهيرة : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب " ودعا الشافعى ـ رحمه الله ـ إلى عدم التعصب للرأى بقوله:"إذا صح الحديث فاضربوا بمذهبى عرض الحائط ".

كانت هذه هى الروح العلمية السائدة ـ باستثناء حالات هنا وهناك ـ فى المجتمع الإسلامى الأول :

- تحصيل العلم هو القيمة العليا فى المجتمع .
- تسانده وتؤازره ، وتنميه وترعاه : حرية التعبير .
- ويحميه ، ويزود عنه ، ويحافظ عليه : احترام الرأى الآخر، والدفاع عن حرية الآخرين فى التعبير عن آرائهم ، مهما اختلف المرء معهم .

وبذلك شيد المسلمون صرحاً حضارياً ظل مفخرةً لهم على امتداد التاريخ حتى اليوم ...فحين يحس المسلم بالمهانة يتذكر ما بناه أسلافه فى جميع مجالات الحياة ، ويظل يجتر تاريخ أجداده دونَ كلل أو ملل ، لأنه يجد فى ذلك راحة نفسية ، ويشعر بنوع من إثبات الذات بين العمالقة فى المجتمع المعاصر .

لم يخفت نور الحضارة الإسلامية، ويتلاشى بـــهاؤها وضياؤها إلا عندما اختفت هاتان الظاهرتان من المجتمع الإسلامى، حيث أصبح تحصيل العلم تكراراً لما قاله السابقون ، واجتراراً لما تركه الأولون . وليت الأمر اقتصر على ترديد كل ما أنتجه الأُوَل من أفكار ونظريات، بل اقتصر على التمسك بآراء لم يكن لها صدى فى المجتمع الإسلامى الأوّل ؛ إذ كانت ضعيفة ، ولا يمثلها سوى حفنة صغيرة ممن استغلق فهمهم ، وجمدت قرائحهم . وكان وجود مثل هذه الآراء بين الاتجاهات الفكرية التى قادت الأمة إلى بناء نـــهضتها وحضارتـــها ، علامةً على حرية الفكر ، ودليلاً على سيادة مبدأ احترام حرية الآخرين فى التعبير عن أفكارهم ، حتى ولو لم يكن لها سند يقويها ، وذلك هو المناخ الذى يؤهل الأمة ـ أية أمة ، مهما كانت عقيدتـــها ـ لأن تتبوأ مكاناً مناسباً فى صفحات التاريخ ، بما تـــهيئه لها هذه الحرية الفكرية من قدرة على البناء والتشييد فى مجالات الحياة .

لو اقتصر ترديد الأمة على كل ما كان موجوداً على الساحة الفكرية ، لوجدنا من بينها ما يدفعنا إلى الأمام ، حتى ولو كان التحرك إلى الهدف بطيئاً ، ولكن للأسف الشديد ، ردد العلماء آراءً ضعيفة ، واجتروا مفاهيم ليس لها من القوة ما يساعد الأمة على الاستمرار فى نـــهضتها ، فتوقفت حركتها ، بل تراجعت ، حتى سقطت فى هاوية التخلف :

- فألفت التحجر على الأفكار الضعيفة ، رافضة محاولات الفهم لقضايا العصر والاجتهاد فى تأويل النصوص لدفع المسيرة إلى الأمام .

- ورفضت كل ما هو جديد دون النظر فيه ، أو الالتفات إلى أهميته فى دفع مسيرة الحياة إلى الأمام .

- رفضته بحجة أنه بدعة اعتماداً على موروث مشكوك فى صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ .

- ونقبت فى ثنايا الذات عن كل ما يدعو إلى التقوقع على الذات ، ويدعم الانكفاء إلى الوراء ، ويؤيد الداعين غلق كل نوافذ الثقافة ، بحيث لا يتسرب منها إلى داخل المجتمع الإسلامى أى شعاع ، يأخذ بيد المسلمين إلى التقدم والازدهار .

وفى سبيل الدفاع عن هذا الاتجاه جردوا كل أسلحتهم لقمع كل من يخالفهم الرأى، أو يحاول إلقاء الضوء على جوانب مضيئة فى التراث ، تهدد مواقعهم ، وتزعزع وضعهم فى المجتمع كمتحدثين باسم الإسلام . ولما كانت بضاعتهم الفكرية لا تقوى على الصمود أمام الفكر المستنير ـ الذى يدعو إلى فتح باب الاجتهاد ، فيفحص التراث ، ليأخذ منه ما يلائم عصره ، فإن لم يجد استخدم عقله فى فهم النصوص ، معرضاً عن الآراء الضعيفة ، داعياً إلى مراعاة ربط فهم السلف للنص بملابسات الحدث ، ووضعه فى إطاره التاريخى ـ استخدموا سلاح التكفير ضد كل من يخالفهم ، حتى ولو كان موضوع الخلاف لا يتجاوز

مرتبة السنة ، أو يخرج عن دائرة المحسنات، أى أنه ليس فرضاً، ولا سنة مؤكدة .

وليس اتـــهام المخالفين لـــهم مقصورا على محدودى الثقافة منهم، بل سمة عامة فى صفوفهم ، اتخذوه سلاحاً ضد كل من يعارضهم، خوفاً على ضياع هيبتـــهم أمام العامة ، ودفاعاً عن مراكزهم الاجتماعية ، ووضعهم الاقتصادى، ولذا رأينا قادتـــهم، وأولو الرأى منهم يكفرون من يختلف معهم فى الرأى، ويهددونـــهم بقطع أرزاقهم، كلما كان ذلك متاحاً لهم ؛ فقد حضرت ندوة فى إحدى جامعات دول الخليج ، اشتد فيها النقاش بين أحد رموز الجماعات الإسلامية "الكبار" وبين أستاذ جامعى ، خرج من صفوف جماعتـــهم ، لأنه رأى فيها اعوجاجاً عن طريق الإسلام، ولحظ فى تصرفات أعضائها ما يخالف تعاليم الإسلام ، مما جعله يقارن بين أقوالهم وأفعالهم، فتوصل من هذه المقارنة إلى أنـــهم لا يلتزمون بالإسلام ، كما يدعون إلا بمقدار ما يخدم مصالحهم ، ويحافظ على وضعهم الاقتصادى .

اشتد النقاش بين هذا الأستاذ الجامعى وبين "قطب" الجماعة الإسلامية، حتى حصره الأستاذ بالأدلة القرآنية التى تدحض ما ذهب إليه هذا الذى يطلقون عليه لقب "المفكر الإسلامى الكبير"، فلما لم يجد مفراً ، أطلق وعيده وتـــهديده ، وكان مما قاله : "إن من يقول بـــهذا الرأى ليس له مكان فى كليتنا ".

ومن الغريب أنه يدلى فى كثير من المناسبات أنه رجل عصرى، يفهم الإسلام بروح العصر، ويدعو إليه بأسلوب يتفق مع معطيات

المجتمع المعاصر ... قد يكون ذلك فى بعض مواقفه التى لا تمس وضعه الاقتصادى ، أو فى حالات يريد أن يظهر فيها أمام محدثيه، أنه ليس متزمتاً ، أو أنه يفهم من علوم العصر مالا يدركه أقرانه . فليست هذه المواقف "الموسمية" سمة عامة لديه ، بل هى ومضات ، لا تلبس أن تختفى وراء تكوينه الثقافى ، وأسلوبه الذى تربى عليه بين صفوف هذه الجماعات ، ناهيك عن أن أسلوبه فى التهديد لا يقره الإسلام ، أين ما فعله مع هذا الأستاذ فيما بعد (استعدى عليه جهات الأمن فى هذا البلد ،حين أعيته الحيلة مع إدارة الجامعة، حتى استصدر قراراً أمنياً بإنــــهاء عقده) مما كان يفعله الرسول ﷺ مع أصحابه ، وحتى مع أعدائه ، ألم يقرأ قول الله تعالى : ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾. (المائدة : ٨).

إن تقديس آراء السابقين مخالف لروح الإسلام وتعاليمه ، ومناقض لما أُثِرَ عن الرسول ﷺ من حث المسلمين على الاجتهاد فى فهم النصوص ، ومتعارض مع أهم مبدأ قامت عليه الحضارة الإسلامية التى يتغنون بــــها حتى الآن، ألا وهو حرية الرأى واحترام رأى المعارضين ؛ إذ لو لم يوجد هذا المبدأ فى المجتمع الإسلامى ما قامت لــــهذه الحضارة قائمة ، ولا شاهدنا تلك الإنجازات التى يفخر بــــها المسلمون أمام شعوب العالم ؛ فلا قيام لحضارة فى جو الإرهاب الفكرى، ولا مكان للتقدم والرقى إلا إذا تصارعت الأفكار، وتدافعت الرؤى المختلفة فى ساحات العمل،

وتنافست قوى الإبداع فى مجالات الفن والابتكار ، وهذا ما هيأه الإسلام للمسلمين الأول ، بإرسائه لمبدأ الحرية فى جميع مجالات الحياة ، لا يحد منها إلا ما اتفق الجمهور على ضرورة الالتزام به ، ولا يقيدها إلا ما كان لازماً لسلامة المجتمع . مبدأ إسلامى عام : "**لاإكراه**" ، حتى ولو ترتب عليه عدم الإيمان به ، فالإنسان حر فيما يعتقد، وفيما يعمل ، وفيما يحب، لا يحد من حريته إلا النظام العام للحياة ، فلا ضرر ، ولا ضرار ، وما عدا ذلك فهو حر حرية كاملة .

أما ما ينادى به من يتصدرون قوافل الدعوة الإسلامية من وجوب الاتباع لرأى معين دون غيره من الآراء فهو مخالف لتعاليم الإسلام ، بل هو ارتداد إلى ما كان يمارسه الكهنة ورجال الدين قبل الإسلام من تأويل للنصوص المقدسة تأويلا يجعل المؤمنين أداة طيعة فى أيديهم يوجهونـــهم حيث يشاءون ، تارة بالإرهاب والتخويف، وأخرى بإيهامهم أن أمل النجاة منحصر فى طاعة أوامرهم ، وتنفيذ ما يُطلب منهم بصرف النظر عما يُخلِّف هذا العمل من آثار ، فهم فى طاعة الله ماداموا فى طاعة هذا الكاهن ؛ لأنه أوهمهم أنه لايتكلم إلا باسم الله ، ولا يأمرهم إلا بناءً على وحى الله المنــزل على رسله ، فإذا اعترض بعض المؤمنين على بعض آرائهم رموه بالكفر والزندقة ، وطردوه ـ طبقا لما يدعيه هؤلاء الكهنة ـ من رحمة الله .

أليس ما نشاهده اليوم على الساحة الإسلامية من فرض الرأى بالقوة،ومحاربة المخالفين فى أرزاقهم،ورميهم بالكفر والزندقة هو بعينه ما كان يفعله الكهنة ورجال الدين قبل الإسلام؟

ألا يعتبر تخويف الإنسان من كل ما يحيط به،وتكبيله بطقوس فى كل حركاته وسكناته ـ حتى أصبح عبداً لأساطير وخرافات لا تمت إلى الإسلام بصلة ـ إلى أن صار عاجزاً عن الإبداع والابتكار، ومُعَوَّقاً فى كل مجالات المنافسة الحضارية المعاصرة ، مما جعله أشبه بالإنسان البدائى التى حاصرته تعاليم السحرة والكهنة، فمسخته دمية فى يد من يَدَّعى أنه يملك أسرار ما حوله . . . .؟

ألا يعتبر هذا ردة إلى وضع الإنسان فى العصور الأولى الذى جاءته الأديان لتخلصه منها ؟

جاءت الرسالات السماوية لتحرر الإنسان من الخرافات والأساطير،ولترد إليه كيانه وذاته؛فمنحته الحرية فى التعبير والاعتقاد حتى يتمكن من الوصول إلى ما يسعده فى الدنيا والآخرة. . .وكان كلما مر الزمن وغيَّر الكهان ورجال الدين ماخلفه الأنبياء ليُحْكموا سيطرتـــهم على الناس . . . .أرسل الله نبياً آخر ليحرر الناس مما أوهمهم به الكهان . . .حتى جاء محمدﷺ بالرسالة الخاتمة ، وحفظها الله فى قرآنه المجيد الذى لم يستطع رجال الدين أن يغيروا شيئاً من نصوصه ، فالتفوا حوله بتأويلات وتفسيرات، وطمسوا معالمه بمأثورات لاسند لـــها، وجمَّدوا مبادئه بمرويات عن علماء اجتهدوا لمواجهة متطلبات عصرهم ، ونسوا أوتناسوا أن مفهوم

صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان أنه جاء بمبادئ عامة ـ فى كثير من تعاليمه ـ تستطيع كل المجتمعات أن تلتزم بـــها دون أن تنسلخ عن إطارها التاريخى ، ومقتضيات بيئتها المحلية .

ومن يفهم غير ذلك فإنه يجمد مبادئ الإسلام فى ثلاجة التاريخ ، ويريد أن يَرُدَّ الإنسان إلى العصور البدائية ، حيث كان الإنسان مسلوب الإرادة من كثرة القيود التى وضعها الكهان على عاتقه .



خامساً : تدريس الثقافة الإسلامية فى الجامعات

إن من عنصر تصحيح الخطاب الدينى فى المجتمع أن تكون صورة الدين لدى الشباب بعيدة عن الأوهام والخرافات ، ومتسقة مع متطلبات حياته ، ولا يكون ذلك إلا بتبصيره بمبادئ الإسلام الصحيحة، التى تجعله يتجاوب مع عصره،مع عدم البعد عن الدين. ومما لاشك فيه أن تدريس مادة الثقافة الإسلامية لجميع طلاب الجامعات فى العالم الإسلامى يسهم إلى حد كبير فى هذا الصدد ، بشرط أن يراعى فى وضع منهجها مايلى :

١ـ تنمية الروح الدينية عند الطالب ، سواء أكان من جانب الاعتقاد بخالق الكون،أو من ناحية أن الدين ـ وخاصة الدين الإسلامى ـ يحث على البحث فى الكون، واستكشاف أسراره، وتسخير ما فيه لصالح الحياة الإنسانية.

٢ـ تقويم السلوك ، وذلك بالنص فى المنهج على القيم والمبادئ التى تدعو الإنسان إلى التحلى بالأخلاق الحميدة ، والالتزام بكل ما يحقق للإنسان سلاما وأمنا واطمئنانا .

٣ ـ من أهم ما يحتوى عليه منهج الدراسة للثقافة الإسلامية أن يقوم على أساس القرآن الكريم ، وعلى ما أجمعت الأمة على صحته من السنة النبوية الشريفة، مبتعدا عن الخلافات المذهبية أو البيئية، أى التى ارتبطت بأحداث وقعت فى

العصور السابقة ، ولم يعد لها وجود الآن ، فالمنهج السليم لابد أن يقوم على المبادئ الأساسية فى الإسلام ، مع مراعاة مناقشة مشاكل العصر وطرح حلول دينية لها، تناسب ظروف البيئة، مع الالتزام بوضعها فى إطار الممكن بالنسبة لجمهور المسلمين .

٤ ـ التركيز على أن اختلاف العلماء فى الأحكام الدينية أمر طبيعى، ينبغى أن يتقبله المسلم بارتياح، لأن فلسفة الحياة تقوم على هذه الظاهرة ، ولأن ذلك من طبيعة الإسلام من ناحية كونه دينا عالميا لكل البشر فى كل أقطار الأرض . ومما لا شك فيه أن ظروف الحياة على هذه الكرة الأرضية متباينة ، بل ومتباعدة أحيانا ، فكان لابد أن يكون هناك فى مسائل التشريع الحياتية ـ والعبادية أحيانا ـ تنوع ، حتى تتاح الفرصة ليطبق كل مجتمع ما يلائم ظروف حياته الزمانية والمكانية . فإذا فهم الطالب ذلك خفت حدة التعصب،وتوارى التطرف، وبذلك تختفى الصراعات المذهبية، ويتوارى العنف الطائفى، فيطمئن الفرد، وتنتظم نغمات الحياة ، ويعم الأمن والاطمئنان فى المجتمع.

٥ ـ ومن العناصر المهمة ـ إن لم يكن أهم عنصر ـ فى مقرر الثقافة الإسلامية : الاعتراف بالآخر ، وأقصد به : احترام عقيدة الآخرين وشريعتهم، حتى ولو كانوا كفارا ووثنيين، لأن ذلك منصوص عليه فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى:﴿...لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾(الكافرون: ٦). فمن باب

أولى أصحاب الرسالات السماوية ، كاليهود والنصارى ، الذين سماهم القرآن الكريم : أهل الكتاب ؛ لأن من أركان الإسلام الأساسية : الاعتراف بمن أرسله الله قبل محمد ﷺ ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة :٢٨٥). فالإيمان الصحيح ، والإسلام المقبول هو الذى يتضمن الاعتراف برسالة موسى وعيسى عليهما السلام ، فإذا استقر ذلك فى وعى الطالب نظر إلى أتباع هذين الرسولين — وإن اختلف فهمهم لما أُنزل عليهما مع ما أخبر به القرآن الكريم ـ بأنهم إخوان له فى العقيدة ؛ إذ يجمعهم قاسم مشترك، ألا وهو : أن رسالتهم سماوية، فهى من المنبع الذى نزل منه القرآن الكريم، والجميع يتوجهون بالعبادة إلى إله واحد، وإن اختلفت تصوراتهم له ، وتباينت طرق التوجه إليه. وبذلك تسود روح الأخوة بينهم ، ويساند بعضهم بعضا فى نشر المبادئ المشتركة ، ومواجهة العدو المشترك ، ألا وهو : الماديون الملحدون ، الذين يناصبون الدين العداء ؛ فهم ينشرون الرذيلة فى المجتمع، ويغرسون روح العداوة والبغضاء بين الشعوب، ليدمروا العالم ، فأولى بنا أن نبنى مقرراتنا الدراسية على التسامح والود مع أبناء الأديان السماوية ، لإعداد شباب يضع يده مع أيدى شباب هذه الأديان ليواجهوا سويا هذه

الفوضى العارمة التى يبثها أعداء الأديان فى المجتمع ، وبذلك نبنى بيئة حياتنا على أساس سليم ، ونُؤَمِّن مستقبلنا بسياجٍ يستعصى على الاختراق ، لنصد كيد من يريد للمجتمع سوءاً أو يضمر له حقداً .

٦ـ بيان أن الإسلام ليس صلاة وصياماً فقط، وإنما هو دين يحث على العمل الدنيوى لإعمار الأرض،جنبا إلى جنب مع أداء العبادات المفروضة ، بل إنه يعتبر إعمار الأرض عبادة لله، ويفضل طلب العلم على الاعتكاف بالمساجد يقول رسول الله ﷺ:"....وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب...." [١]، كذلك يفضل نشر العلم على تأدية النوافل من صلاة وصيام، فقد سئل رسول الله ﷺ عن رجلين فى بنى إسرائيل ، أحدهما كان عالما يصلى المكتوبة، ثم يجلس فيعلم الناس الخير ، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل ، أيهما أفضل ؟ ، قال رسول الله ﷺ : " فضل هذا العالم الذى يصلى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذى يصوم النهار ويقوم الليل كفضلى على أدناكم رجلا" [٢].وعليه فينبغى أن يحتوى مقرر الثقافة الإسلامية على هذا المعنى ، كى لا يستغرق الشباب فى العبادة مهملا واجبه إزاء أمته ، ذلك الواجب الذى يحتم عليه دينيا أن يبذل قصارى جهده فى سبيل التنمية ، حتى

---

(١) أبو داود : العلم ، باب ١ ، رقم ٣٦٤١.

(٢) الدارمى : المقدمة ، باب ٣٢ ، رقم ٣٤٩.

تستطيع الأمة الإسلامية أن تحتل موقعا ملائما فى سلم الحضارة الإنسانية ، ففى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على النظر والبحث فى الكون والطبيعة والإنسان وغيره من الكائنات الحية، يجب أن يعرف الطالب هذه الآيات ويفهمها فى دراسته لمقرر الثقافة الإسلامية، كى يدرك أن الإسلام دين ودنيا ، عبادة وعمل، روحانية ومادية .

٧ـ لا ينبغى أن يقوم منهج الثقافة الإسلامية على حفظ آيات من القرآن الكريم ، وتلقين أحاديث من السنة النبوية فقط، بل ينبغى أن يكون له من المقومات ما يساعد الطالب على فهم روح الإسلام، واستكشاف أسلوب معاملته فى تقويم الإنسان، ذلك الأسلوب الذى من أهم معالمه : التيسير لا التشدد تنفيذا لأمر رسول الله ﷺ فيما روى عنه أنه قال : " **يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا** "[1] ، كما من أهم معالمه أن الأصل فى الأحكام الإباحة،مالم يرد نص قطعى الدلالة بتحريمه، أما ما يحتمل أكثر من وجه فروح التعاليم الإسلامية تقضى أن يأخذ المسلم من هذه الآراء ما يسهل له سبل الحياة ، ويتلاءم مع ظروفه ومتطلبات عصره فقد روى عن عائشة أنـــها قالت:"**ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه** ".[2]

---

(١) البخارى : العلم ، باب ١١ ، رقم ٦٩.

(٢) البخارى : المناقب ، باب ٢٣ ، رقم ٣٥٦٠.

٨ ـ بيان أن التراث الفكرى للمسلمين لا يقبل كله ؛ لأن ذلك يوقعنا فى تناقض ، لأن فيه من الآراء ما يناقض بعضه بعضا، ولذا ينبغى أن ننقيه ، فنقبل منه ما وافق القرآن الكريم ، فإن لم يكن له مثيل فى القرآن، احتكمنا إلى العقل، فنقبل ما يقره العقل، ونرفض ما يرفضه، وبذلك ننقى التراث من الخرافات والأساطير التى ليس لها أصل فى القرآن الكريم، فننقذ الشباب من الأوهام التى عطلت قدراته العقلية،ونحميه من التصورات الهلامية التىأعجزته عن اللحاق بركب الحضارة الحديثة.

٩ ـ غرس المبادئ والقيم الاجتماعية والإنسانية فى نفس الطالب، مثل الصدق، والأمانة، والالتزام، والشرف، وحقوق الجار، وبر الوالدين،وغيرها من الأخلاق التى تميز الهوية العربية والإسلامية عن غيرها،وكذلك العدل، والسلام، والأخوة الإنسانية، وكيفية التعامل مع الشعوب، والأعراق ، والجنسيات الأخرى .

١٠ ـ ينبغىأن يشتمل منهج الثقافة الدينية على تعويد الطالب على السلوك الحضارى،مثل: النظافة، والنظام ، والمحافظة على البيئة،واحترام المواعيد، وتنمية التذوق الجمالى عنده والحرص عليه ، سواء فيما يتعلق به شخصيا ، أو يرتبط بما يحيط به مما يتخذه فى شئون الحياة العامة ، كذلك الالتزام بما تعارف عليه المجتمع من تقاليد وعادات، وتجنب ما يستقبحه المجتمع، وينبذه من سلبيات. وبذلك ينسجم سلوكه مع الذوق العام، ويلتحم أسلوب حياته مع عادات أمته وتقاليدها.

ومما لاشك فيه أنه إذا روعى فى وضع منهج الثقافة الدينية لطالب الجامعة ما بيناه سابقا ، فسوف نُخَرِّج طالبا سويا فى تفكيره،ينظر إلى ما يحيط به من تيارات فكرية نظرة فاحصة، ينتقى منها ما يعود عليه بالنفع والاطمئنان ، ويرفض ما فيه ضرر له ولأمته ، الأمر الذى لايحتاج معه إلى وصاية فكرية، أيًا كان نوع هذه الوصاية ، فهو قد حُصِّن بالمبادئ الدينية التى تغذى الجانب الروحى عنده ، تلك المبادئ التى لاتفصله عن متطلبات عصره ؛ فهى تدعوه إلى استعمال العقل، والنظر إلى اختلاف الآراء وتعددها بارتياح، فلا ينـــزعج من كثرتـــها ،ولا يعتريه القلق من غلو بعضها ، وإهمال البعض الآخر للمبادئ والقيم ، لأنه تعلم فى مدرج الدراسة أن هذا هو طبيعة الفكر الإنسانى، وتلك هى فلسفة الحياة فى المجتمعات الإنسانية ، فعليه ـ بتكوينه الفكرى على منهج من هذا النوع ـ أن يناقش كل ماهو مطروح على الساحة بنفسه، وأن يرد بالأدلة الواضحة والحجج والبراهين الساطعة ما يراه منحرفا ، وأن يؤيد مايراه تدعيما لهويته ، وتمكينا لثقافته ، وترسيخا لتقاليد وعادات أمته .



لماذا الثقافة الإسلامية

إن هوية الأمة ـ أى أمة ـ تقوم على ثقافتها ، ووجودها يرتكز على دينها وعقيدتها،فكلما حافظ الأفراد على ثقافتهم، وتمسكوا بها ، وحموها من الذوبان فى الثقافات الأجنبية، برزت هويتهم ، وتميز كيانهم بين الثقافات ، وثبتت أقدام أمتهم بين ركب الأمم ، وتسامت هاماتهم فى خضم الأمواج العالية على الساحة الدولية .

كذلك الأمر فيما يتعلق بدينها وعقيدتها ؛ فالدين أساس الوجود ، ومرتكز الحياة ، فلا توجد أمة بدون دين ، ولا يبرز كيان المجتمع إلا بالدين والعقيدة ، فهوية الأمة الإسلامية دينها، ووجودها مرتبط بالعقيدة: سلوكا، وأخلاقا ،وحضارة.ولا تتحقق لها حياة كريمة إلا إذا تربى أبناؤها على تعاليم الإسلام ، فدرسوا أسس العقيدة وتدربوا على مواجهة ما يوجه إليها من افتراءات ، خاصة فى عصرنا الحاضر ، حيث تتسارع الأحداث ، وتتدفق المعلومات من كل حدب وصوب مؤثرة فى صياغة الحياة فى المجتمعات الإسلامية ، فلو لم يتسلح الشباب للتعامل معها تهتز عندهم المسلمات ، ويتشابك فى ثقافتهم الغث مع السمين ، فيتسرب الشك إلى عقولهم ، لهذا كان من الواجب علينا عقديا أن تشتمل مناهج التدريس فى الجامعات الإسلامية على مادة الثقافة

الإسلامية ، لكى نحمى شبابنا من التيارات الهدامة ، ونصون عقيدتـــهم من التلوث الفكرى ـ أو من العنف والتطرف ـ المنتشر على الساحة الفكرية فى طول الكرة الأرضية وعرضها، حتى يكونوا قادرين على المواجهة فى كل زمان ومكان.

وخير دليل على أهمية تدريس مادة : الثقافة الإسلامية فى الجامعات الإسلامية ما نراه اليوم فى المجتمع من شعور الشباب بأنـــهم ضائعون،لا يعرفون لهم هوية يرتكزون عليها،ولا يشعرون بكيان يجمعهم فى نسق واحد؛ فهم مشتتون بين الثقافات المختلفة، وحائرون فى دهاليز مظلمة لا يظهر لـــهم فيها طريق يقودهم إلى مستقبل يحقق لـــهم أحلامهم وآمالـــهم، أو يشبع رغباتـــهم المشروعة، فعيونـــهم على الهجرة إلى خارج الوطن ، وآمالـــهم معلقة على اللحاق بالغير ، تاركين أوطانـــهم خالية من عقول تحميها وسواعد تبنيها ، وعزائم تصر على دفعها إلى الأمام لتتخذ مكانـــها بين الأوطان . فمعظم شباب اليوم لا يرى له مستقبلا فى بلده ، بل فى أماكن أخرى بعيدة عن الوطن الذى رباه ورعاه فكريا وثقافيا،فضلا عن تنميته جسمانيا وحمايته اجتماعيا ونفسيا، فهو يحيا فى وطنه غريبا ، لأنه لم يتلق من الثقافة الدينية ما يشعره بـــهويته، ويغرس فيه حب وطنه وأهله، ولم يتعلم من القيم والمبادئ الدينية ما يحميه من الحيرة التى أصيب بـــها عندما تلقى من السماوات المفتوحة تيارات ثقافية متعددة الألوان والأشكال ، تدعوه إلى التخلى عن هويته وثقافته ، وتقليد ما تعرضه عليه من أساليب الحياة وطرقها.ولكثرة هذه النماذج المعروضة عليه ، وعدم

حمايته بالثقافة الدينية ، فقد صاغ بنفسه نموذجا لحياته لا يعرف له هوية ،ولا تنسجم عناصره فى إطار محدد ، فهو خليط من النماذج والصور العالمية المتعددة الاتجاهات والفلسفات. وليته اختار منها العناصر الإيجابية التى تساعده على رقى حياته و تقدمها ، بل كان معظم ما اختاره هو من نفايات الصور الحضارية فى العالم المتقدم .

لن يخرج شبابنا من حالة الضياع التى وصل إليها إلا إذا أدرك هويته عن طريق دراسة مادة الثقافة الدينية فى المرحلة الجامعية ، بشرط أن يضع منهجها علماء بارزون فى العلوم الدينية، ومدركون لمعطيات العصر ، وقادرون على مراعاة النقاط العشر السالفة الذكر عند وضعهم لهذا المنهج ،بالإضافة إلى إعداد كوادر التدريس إعدادا يؤهلهم لفهم طبيعة الفكر الإسلامى ، من حيث : التعددية ، والسماحة ، والاعتراف بالرأى الآخر، وحرية المسلم فى اختيار ما يناسبه من الآراء ، وعدم استعمال القوة لفرض رأى معين .

فهذه هى القواعد الأساسية فى دراسة الثقافة الدينية، التى تسهم فى تكوين عقلية الشباب ، حتى يدرك هويته ، ويتمسك بها ، ويعرف مكان أمته بين الأمم ويعتز بها ، ويدافع عنها .... بل يتفانى فى سبيل رقيها وتقدمها ، ويحرص فى عمله على الإسهام بأقصى ما يمكنه فى بناء أمته ، لتحتل المكان اللائق بها بين الأمم.

***

سادسا : الاهتمام بنشر الإسلام خارج الدول الإسلامية

وخاصة فى العالم الغربى ، والرد على مايثار من شبـــهات فى وسائل إعلامه ، وذلك على النحو التالى :

١ـ إنشاء معاهد لتعليم الدعاة اللغات الأجنبية (وليطلـــق عليها: معاهد إعداد الدعاة) ذات الانتشار الواسع ، وهى : الإنجليزية ،والفرنسية ،والألمانية، والإسبانية، والصينية ، والروسية، ويكون طلبتها من خريجي الكليات الشرعية المتفوقين، وبعد إتقانـــهم اللغة يرسلون إلى المراكز والمساجد الإسلامية ليثقفوا أبناء المسلمين فى تلك البلاد ، وليشرحوا مبادئ الإسلام لغير المسلمين من سكانـــها .

٢ـ تعيين ملحق دينى فى كل سفارة من سفارات الدول الإسلامية ـ ويجب أن يكون من خريجى المعاهد سالفة الذكر ـ ليكون مرجعا لمن يريد معرفة تعاليم الإسلام، وليتصدى لكل ما يثار ضد الإسلام وحوله فى وسائل الإعلام.

٣ ـ التوسع فى المنح الدراسية لأبناء المسلمين الذين يتحدثون بتلك اللغات ـ باعتبارها لغتـــهم الأصلية ـ لدراسة العلوم الإسلامية فى الكليات الشرعية ليؤهلوا تأهيلا عاليا للقيام بالدعوة إلى الله بين أبناء جلدتـــهم .

٤ ـ تعاون الدول الإسلامية كلها لإنشاء قناة فضائية واحدة تتحدث باسم الإسلام باللغات المختلفة .

٥ - إنشاء صحافة إسلامية فى تلك البلاد ، أو على الأقل تأجير بعض الصفحات فى الصحف الكبرى لتعبر عن رأى الإسلام فى القضايا المعاصرة .

٦ - تعاون الدول الإسلامية لإنشاء مركز للترجمة ، تكون مهمته ترجمة كتب مختارة إلى اللغات الأجنبية ، وترجمة كل ما ينشر عن الإسلام فى اللغات الأخرى إلى اللغة العربية ، والرد على ما يثار من شبـــهات ضد الإسلام فى هذه الكتب باللغة التى نشرت بـــها .

هذا هو التصور الذى يجب أن يُدْرَس للنهوض بالخطاب الدينى، إذا أراد المهتمون بالفكر الإسلامى خدمة الدعوة الإسلامية، بعيدا عن توجهات خارجية، أو نصائح أجنبية، أو إملاءات من أى قوة عظمى ، مهما كان موقعها ، وعلى أى وضع كانت هيمنتها وسيطرتـــها على مقاليد الأحداث فى الكرة الأرضية .

الفهرس